الفصل السادس

لكى نبدأ
العالم من جديد

obeikan.com

obeikan.com

« نحن رواد العالم وطليعة حراسه، أرسلنا عبر برية الأشياء التى لم يسبق تجربتها، لكى نفتح طريقًا جديدًا فى العالم الجديد الذى هو عالمنا » هرمن ملفيل «السترة البيضاء» (١٨٥٠م)

عندما أبحرت «أرابيلا» من إنجلترا فى سنة ١٦٣٠م، كانت السفينة الصغيرة تحمل على متنها مجموعة من الأسر البيوريتانية(*) المتزمتة، كانوا فى طريقهم لاستعمار برارى أمريكا الشمالية البكر. وتجمع الركاب على سطح السفينة للاستماع لخطبة ألقاها أحد القسس البيوريتانيين المتزمتين المتقدين هو چون كوتن (١٥٨٥ـ١٦٥٢م) الذى وصف وجهتهم بـ «الأرض الموعودة الجديدة»، مكان «حفظه الرب لهذه النخبة المختارة ليكون الموقع الفعلى لسماء جديدة وأرض جديدة»[١]. وهكذا تم غرس سفر الرؤيا فى تربة مستعمرة خليج ماستشوستس الخصيبة، فأزهر بصور جديدة وغريبة ودائمة.

أعلن قس بيوريتانى آخر هو إنكريز ماذر (١٦٣٩ ـ ١٧٢٣م) بعيد وصوله إلى أمريكا قائلاً: «طرد المسيح بعناية إلهية عجيبة الشيطان الذى ظل يسيطر بلا شك على أواخر الأرض هذه ولحقب لا يعلم عددها إلا الرب؛ وهنا شاء الرب لأورشليم [القدس] الجديدة أن تهبط من السماء»[٢].

ربما دوَّن مؤلف سفر الرؤيا رؤاه على جزيرة أمام ساحل آسيا، إلا أن سفره الصغير العجيب ما لبث حتى بدأ يتحرك غربًا باستمرار. فالجناح الشرقى للمسيحية كاد يستبعده من الشريعة التوراتية، إلا أن سفر الرؤيا فاز بمكان على أقدم القوائم التوراتية

(*) البيوريتانز أو الأطهار، پروتستانت انشقوا عن كنيسة إنجلترا؛ لأنهم رأوها غير صالحة، وبها شوائب كاثوليكية، وهاجروا للأرض الجديدة ليعبدوا الرب بالطريقة التى يرونها صحيحة، فاعتبروا أنفسهم شعب الله المختار، وأمريكا هى أرض الميعاد. وأحفادهم اليوم هم الإيڤانجليكيون.

للعالم المسيحى الغربى. وبلغ ما يعرف بالغزو الرؤيوى أكمل تعبير عنه فى الفنون والآداب والعمارة فى كل من فرنسا وألمانيا. ومارس السفر سحره الغريب وبقوة أكبر على قلوب الأنجلوساكسون وعقولهم على حافة أوروبا الغربية. وراودتهم فكرة مثيرة مفادها أن يسوع المسيح مشى بنفسه ذات مرة «على خضرة جبال إنجلترا» على حد تعبير الفنان والشاعر صاحب الرؤى ويليام بليك (١٧٥٧ـ ١٨٢٧م) فى قصيدة له بعنوان «أورشليم [القدس]» ، وسيقيم ذات يوم «أورشليم [القدس] الجديدة» «وسط هذه الطواحين الشيطانية القاتمة»[٣]. وكان بليك نفسه من قراء سفر الرؤيا المتحمسين وممن أولوه تأويلاً جديدًا ، وصارت قصيدته فيما بعد نشيدًا قوميًّا بريطانيًّا :

لن أتوقف عن القتال العقلى

ولن يغفو سيفى فى يدى ،

إلا بعد أن نبنى أورشليم

على أرض إنجلترا الخضراء البهيجة[٤].

ومع ذلك فإن أشد المصلحين البروتستانت راديكالية والمعروفين بالبيوريتانيين رفضوا التغنى بأناشيد لإنجلترا أو كنيستها أو مليكها. فمكائد كهنة كنيسة إنجلترا وتكلف مراسمها وطقوسها لم تكن فى نظرهم أقل فسادًا من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. فكانوا يعتبرون ملوك إنجلترا ممن كانت من ألقابهم الملكية «حامى حمى الدين» أحدث المرشحين لدور عدو المسيح وأرجحهم. وكانت ثقافة إنجلترا الغنية والمنحطة أحيانًا فى القرن السابع عشر بمسرحياتها وغزلياتها الفاضحة ، وتمثيلياتها وعروضها الموسيقية المتهتكة ، ونوبات احتفالها وسكرها الجريئة ، وأزيائها ونظمها المترفة وغير ذلك كثير ـ لا تقل قبحًا فى نظرهم عن الوثنية الرومانية فى نظر مؤلف سفر الرؤيا ، أو عن الخيرية الإنسانية فى عصر النهضة فى عينى ساڤونارولا ؛ لذا فإن البرارى على الجانب الأقصى من الأطلنطى وإن سكنتها قبائل محلية اعتبروها من عملاء الشيطان ، أذهلت البيوريتانيين باعتبارها موقعًا أنسب «لأورشليم [القدس] الجديدة» من تلك الطواحين الشيطانية بإنجلترا القديمة[٥].

وهكذا بدأت الخطوة التالية لتحرك سفر الرؤيا غربًا، وهى ظاهرة غريبة يسميها المؤرخ ستيفن ستاين «أمركة التراث الرؤيوى»[٦]. وما إن حل البيوريتانيون بالعالم الجديد ـ «تاركين فساد أوروبا خلفهم، وإلى الساحل الأمريكى أمامهم» من منظورهم ـ وحطوا رحالهم حتى شرعوا فى جلى النصوص الرؤيوية القديمة. فنجد جون وينثروب (١٥٨٨ ــ ١٦٤٩م) وهو أحد ركاب السفينة أرابيلا وأول حكام مستعمرة خليج ماستشوستس يستحضر «أورشليم [القدس] الجديدة» حيث شبه المستوطنة البيوريتانية بـ«مدينة فوق تل». وكانت قصيدة مايكل ويجلزورث «يوم الحساب» (١٦٣١ ــ ١٧٠٥م) «أول عمل حقق أفضل المبيعات فى حولية تجارة الكتب الأمريكية»[٧].

إلا أن البيوريتانيين ومن جاءوا بعدهم لم يتوانوا عن التلاعب بسيناريو سفر الرؤيا والخروج بخطوط قصصية من ابتكارهم. بل إنهم سعوا لإبراز الجانب الإيجابى من السفر وأضفوا على الفكرة الرؤيوية صبغة أمريكية فريدة استمرت حتى عصرنا القلق هذا. فنهاية العالم ودمار النوع البشرى يمكن اعتباره أمرًا طيبًا لو نُظر إليه بالطريقة السليمة.

كان العالم الذى خلفه المستعمرون البيوريتانيون لا يزال يظله الفزع القديم الذى أضفيت عليه أسماء ووجوه وشخصيات واضحة فى سفر الرؤيا. فأحداث الحرب الأهلية فى إنجلترا ـ حيث قام الزعيم البيوريتانى أوليفر كرومويل (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨م) والجيش البرلمانى بطرد الملك تشارلز الأول من العرش ثم إعدامه ــ وضعت الأوهام الرؤيوية فى بؤرة التركيز بشكل أكثر حدة. ووسط الفوضى والأزمة ــ الحرب والثورة والتعذيب والقتل وحرق الساحرات وحرق الكتب ـ تأرجح قراء سفر الرؤيا بين اليقين القديم بأن نهاية العالم وشيكة والاقتناع الجديد بأن هناك عالمًا أفضل فى الأفق.

كان أتباع كرومويل، مثلا، يرون فى النزاع بين الجيشين البرلمانى والملكى صراعًا بين المسيح وعدو المسيح، واعتبروا هزيمة الملك تشارلز الأول من علامات قرب ظهور مملكة يسوع المسيح الألفية. يقول الشاعر (وكاتب الرسائل السياسية) جون ميلتون (١٦٠٨ ــ ١٦٧٤م): «الملك الخالد والمتوقع ظهوره قريبًا سيشق السحب ليحاسب ممالك العالم العديدة»[٨]. واستغل أعداء كرومويل أيضًا سفر الرؤيا. فهناك أحد كتاب

الرسائل السياسية المشايعين للجيش الملكى أطلق على كروميل «الملك أوليفر حامى الرب» وأكد أن اللقب رمز عددى محصلته الرقم ٦٦٦ الشيطانى بحذف حرف L من كلمة Lord (الرب). وفى سنة ١٦٤٣م قال أحد الوعاظ الإنجليز: «هذه أيام اضطراب، وهذا الاضطراب كونى»[٩].

وفى لحظة خطيرة فى سنة ١٦٥٣م كاد البرلمان يسقط فى قبضة ما عرف بـ «رجال الملكية الخامسة» وهم طائفة متطرفة من الجنود ورجال الدين والفقراء ممن يشير اسمهم إلى المملكة الإلهية المتوقع أن تعقب الممالك الأرضية الأربع التى ورد ذكرها فى سفر دانيال. وكان هؤلاء «القديسون» الأدعياء يتطلعون لثورة رؤيوية من النوع الذى تنبأت به هيلديجارد بينجن: الكنيسة والحكومة على السواء ومعهما الأغنياء والأقوياء ستستبدل بهم حكومة دينية توراتية على رأسها الملك يسوع نفسه. وكان كروميل يرى ضرورة قمع «رجال الملكية الخامسة» بقوة السلاح فى سنة ١٦٥٦م. فصاحوا حين شقت فرقة من الجنود أحد حشودهم العامة واصطحبوهم إلى السجن وقالوا: «أيها الرب، إما تظهر الآن أو لا تظهر أبدًا»[١٠]. ولا حاجة للقول بأن الرب لم يظهر هذه المرة أيضًا.

كان البيوريتانيون المتشددون والمولعون بالانتقاد وخصومهم الدنيويون اشتبكوا فى حرب حضارية أيضًا. وهناك خطيب بيوريتانى يتبنى إحدى سمات مارتن لوثر الكلامية كان يسب رجال الدين الأنجليكانيين(*) بأنهم «فضلات عدو المسيح»[١١]. هذا فى حين أن بن چونسن (١٥٧٢ ـ ١٦٣٧م) سخر من توقعات البيوريتانيين الرؤيوية الرهيبة عندما رسم شخصية فى Bartholomew Fair تدعى Busy ـ the ـ Land ـ Zeal ـ of وهو عبارة عن عراف يرى آلة موسيقية غريبة معروضة فى سوق ريفى ويسارع باستنتاج أنه رأى «وحش الرؤيا». فطبلة الآلة حسب قول چونسن هى «بطن عدو المسيح، وهذا الانتفاخ رئتاه، وهذه الأنابيب حلقه، وهذا الريش ذيله والصليل صرير أسنانه»[١٢].

(*) التابعين لكنيسة إنجلترا «Anglican church».

واخترقت التهاويم الرؤيوية التى اعتبرها چونسن مضحكة حتى أرفع دوائر الثورة العلمية الناشئة. فقام الرياضى الإسكتلندى چون ناپير (١٥٥٠ ــ ١٦١٧م) مبتكر اللورغاريتم(*) بتطبيق عبقريته الحسابية على رسالة عن سفر الرؤيا ذهب فيها إلى أن الحقبة السابعة والأخيرة من تاريخ البشرية بدأت بالفعل فى سنة ١٥٤١م وستنتهى فى سنة ١٧٨٦م. ووجد إسحاق نيوتن (١٦٤٢ ــ ١٧٢٧م) الذى حقق عظمة فائقة فى الرياضيات والطبيعة وقتًا للخوض فى لعبة التكهن بالأرقام الرؤيوية. يقول الفيلسوف الفرنسى ڤولتير (١٦٦٤ ــ ١٧٧٧م): «كتب السير إسحاق نيوتن تعليقه على سفر الرؤيا ليعزى الجنس البشرى على تفوقه الكبير عليهم فى نواحٍ أخرى»[١٣].

وربما بلغت الفكرة الرؤيوية أوجها فى العالم القديم فى الوقت الذى كان البيوريتانيون يشقون طريقهم نحو العالم الجديد. فكما توحى نكتة ڤولتير على حساب إسحاق نيوتن، كان سفر الرؤيا قد بدأ هبوطه إلى العالم السفلى للغرائب الدينية. فحريق لندن الكبير فى سنة ١٦٦٦م مثلاً جاء بموجة جديدة من التنجيم بسبب ظهور الرقم الشيطانى فى التقويم. يقول چورچ فوكس أحد زعماء طائفة «كويكرز»: «كل عاصفة رعدية كانت تفرز توقعًا بالنهاية»[١٤]. ومع ذلك، ففى سنة ١٦٩٦م كانت أية ظاهرة طبيعية سماوية، كمذنب هالى، يمكن أن تسبب «الطوفان العظيم» كما ورد فى سفر التكوين وتوحى أن «دمار الأرض بالنار كما هو متنبأ به سيحدث بشىء مماثل»[١٥].

«لم تكن دراما ويستون عن آخر الأزمان تتضمن «مجيئًا ثانيًا» ولا حسابًا أخيرًا» كما يشير پيرى ميلر مؤرخ البيوريتانيين المتميز[١٦]. وربما كان هنا أقدم حراك لفكرة قدر لها أن تكتسب المزيد من المعانى المشئومة فى عهودنا: رؤيا عن نهاية العالم لا تسمح بأى دور للرب. وحتى المسيحيون الأتقياء الذين واصلوا قراءة سفر الرؤيا بإيمان تام بدءوا يرون فى النص معانى جديدة تمامًا ومؤكدة. وكان مقدرًا لهذه الأفكار أيضًا أن تنتقل غربًا إلى أمريكا، حيث تم تطبيق الإبداع الأمريكى على النص المقدس وأدى إلى نتائج ثورية.

(*) فى الحقيقة مبتكر اللوغاريتم هو الخوارزمى البغدادى (٧٨٠ ـ ٨٥٠م).

ومن النماذج الأولى لأمركة سفر الرؤيا ما نجده فى حياة وأعمال كوتن ماذر (١٦٦٣ــ ١٧٢٨م) المتميزة، وهو ابن إنكريز ماذر وحفيد چون كوتن وكاهن «الكنيسة الشمالية القديمة» فى بوسطن. وكان يؤمن إيمانًا عميقًا بفعالية كل من السحر كما تمارسه نساء مدينة «سالم»، والعلم الحديث فى التلقيح ضد الجدرى. ودوَّن رسالة مرعبة عن التلبس الشيطانى الذى لعب دورًا فى محاكمات الساحرات ــ «اذهب وقل للدنيا ماذا تحب هذه الوحوش أن تفعل» ــ ولكنه سعى أيضًا لتلقيح ابنه الصغير ضد الجدرى، وهو تصرف أثار جدلاً فى بوسطن لدرجة دفعت مواطنًا غاضبًا لإلقاء قنبلة أو «رمانة نارية» حسب وصف ماذر نفسه ــ من نافذة غرفة معيشته[١٧]. يقول ماذر فى مفكرته عن سبب عدم انفجار القنبلة: «ولكن كان يقف بجانبى فى تلك الليلة ملاك الرب الذى أنا ملكه، والذى أقوم على خدمته»[١٨].

والتناقضات الواضحة التى كانت تتعايش جنبًا إلى جنب فى قلب كوتن ماذر وعقله يمكن تفسيرها باقتناعه بأنه كان يرى موت الأرض القديمة ومولد الأرض الجديدة فى آن. يقول المؤرخ داميان تومسن فى كتابه «نهاية الزمن ــ The End of Time»: «الحقيقة أن مزيج ماذر من التفاؤل وجنون العظمة يعد من سمات الرؤيا الألفية. فالخوف من الساحرات يقوم فى المقام الأول دليلاً على رهاب نهاية الزمن، إذ كان يعتقد أن آخر الأيام ستشهد تحللاً رهيبًا لقوى الظلام». وفى الوقت نفسه، رأى ماذر فى رخاء المستعمرات الأمريكية ــ «زيادة كبيرة فى نعم الأرض والبحر» ــ دليلاً على أن «الرب كان يدخر شيئًا عظيمًا عندما أنشأ هذه السماء والأرض الأمريكية»[١٩].

بل إن كوتن ماذر كان يرى نفسه «بشير مملكة الرب الدانية»[٢٠] وكان يشارك أباه وجده الشهيرين اقتناعهما بأن أمريكا المكان الذى ستتحقق فيه نبوءات سفر الرؤيا. والحقيقة أن انتباهه كان مركزًا على سفر الرؤيا لدرجة أن أقنع نفسه بأن «ملائكة الشر» تتكلم من خلال فتاة تراءى له أنها ضحية تلبس جنى، وزجرته ذات مرة لإهماله بعض فقرات سفر الرؤيا فى خطبه. فكان الجان يريدونه أن يعظ بالفقرة الثامنة من الإصحاح الثالث عشر («سَيَسْجُدُ لَهُ ــ أى الوحش ــ جَمِيعُ السَّاكِنِينَ عَلَى

الأَرْضِ» ولكنه تحداهم باختياره الفقرة الخامسة عشرة من الإصحاح العشرين بدلاً منها: «وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُوجَدْ مَكْتُوبًا فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ طُرِحَ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ»[٢١].

وعن موضوع يوم القيامة، كان ماذر يستلهم الدين والعلم فى آن معًا. فكان يسلم بأن «أورشليم [القدس] الجديدة» لن تظهر فى أمريكا الشمالية إلا بعد فناء العالم بحريق هائل كما تنبأ يوحنا فى سفر الرؤيا، لكنه كان واعيًا أيضًا بأحدث اكتشافات علوم الأرض فى وصفه آخر الأزمان. فذهب إلى أن البراكين ستكون أداة المشيئة الإلهية. فيقول: «حرائق تحت الأرض وتراكم الجزيئات البركانية التى هى حريق أبدى»[٢٢]. والأهم أنه كان ينظر إلى ما وراء أيام الفزع و«الضيقة» إلى اللحظة المشرقة التى تهبط فيها «أورشليم [القدس] الجديدة» من السماء. فيعلن ماذر فى سنة ١٧٠٩م عبارة أصبحت (وظلت) عقيدة أمريكية: «ربنا المجيد سينشئ مدينة مقدسة فى أمريكا، مدينة شوارعها من ذهب خالص»[٢٣].

وبعد أن نطق ماذر بهذه الكلمات بقرن أو نحو ذلك، بدأ الناس رجالاً ونساء وأطفالاً يتوافدون بالملايين على أمريكا ـ «حشود اجتمعت تتطلع للتنفس بحرية» حسب ما ورد بقصيدة إما لازاروس التى نقشت على تمثال الحرية ـ وجاءوا هم أيضًا بحثًا عن شوارع رصفت بالذهب[٢٤]. وحتى لو كانوا لا يعرفون شيئًا عن سفر الرؤيا فإنهم كانوا يتبعون خطى الآباء البيوريتانيين الذين أخفقوا فى التنبؤ بما ستسفر عنه تهاويمهم الرؤيوية.

لم يكن المستعمرون البيوريتانيون ديمقراطيين بطبيعة الحال. بل كانوا يتطلعون لنوع من الحكم كامن فى النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية ولا سيما سفر الرؤيا «حكومة دينية أقرب ما تكون إلى تلك التى شكلت مجد إسرائيل» حسب قول چون ماذر[٢٥]. لذا فإن أقدم المستعمرين البيوريتانيين فى أمريكا ممن تطلعوا لإنشاء مدينة فاضلة دينية شعروا بالرضا التام عن إنكار المواطنة على من لم يكن عضوًا بالجماعة البيوريتانية، فأبعدوا المنشقين الدينيين، بل أرسلوا بعض «الكويكرز» إلى المقاصل.

ومن حسن طالع الديمقراطية الأمريكية أن البيوريتانيين ما لبثوا أن تواروا أمام الوافدين الجدد إلى أمريكا الشمالية ممن لم يشعروا بالاضطرار لفرض معتقداتهم الدينية

وممارساتهم على إخوانهم المواطنين. فكان الآباء المؤسسون يستلهمون الديمقراطيات الأم لليونان وروما الوثنيتين أكثر من استلهامهم الحكم الملكى الإلهى المحتفى به فى سفر الرؤيا. بل إنهم كانوا على استعداد تام للتلاعب بالنص المقدس نفسه. فكان توماس چيفرسن، مثلاً، يستهزئ بسفر الرؤيا وأخذ على عاتقه إعادة كتابة الأناجيل لتلائم روح العصر الثورية والديمقراطية بحيث لا يبقى إلا على ما اعتبر «كلمات يسوع وحده» ويحذف «الحلل الزائفة التى كساها بها الكهنة ممن حاكوها بصور شتى لتكون أدوات يحققون بها الثراء والسلطة لأنفسهم»[٢٦].

ومع ذلك فإن الجوهر اللاهوتى الواضح لسفر الرؤيا ـ الوعد الأكيد بقرب حلول عالم جديد أفضل ـ كان جاذبًا حتى لأكثر الوطنيين الأمريكيين علمانية. وهكذا فإن مفردات السب الرؤيوية أحسن كتَّاب الرسائل استغلالها فى كفاحهم فى سبيل استقلال أمريكا. فاتهم الملك چورچ الثالث بأنه عدو المسيح، ومشروع قانون الدمغة لسنة ١٧٦٥م الذى فرض على المستعمرين الأمريكيين لصق دمغة ضريبة تحمل اسم الملك وصورته على أوراقهم ومطبوعاتهم تم ربطه بنبوءة فى سفر الرؤيا بأن الشيطان سيغوى الجنس البشرى كله بإبراز وسم الوحش.

ومما لا شك فيه أن العديد من الوطنيين الأمريكيين كانوا مسيحيين متدينين أيضًا، ولكن عندما تحدث الواعظ الاستعمارى صمويل وست عن «ذلك التنديد الشديد بالغضب الإلهى على عبدة الوحش وصورته» كان يشير إلى الأسد البريطانى لا إلى تنين الرؤيا ذى الرءوس السبعة[٢٧]. وكانت الطبعة الأمريكية من «الأرض الجديدة» فى سنة ١٧٧٦م مكانًا يحظى فيه كل إنسان ـ أو بالأحرى كل ذكر أبيض بالغ ـ بـ«الحقوق الثابتة» فى الحياة والحرية والسعى لتحقيق السعادة بدون إملاءات من ملوك أو كهنة. وكان «Novus Ordo Secularum» هو الشعار اللاتينى الذى اتخذ فى سنة ١٧٨٢م ووضع على ختم الولايات المتحدة الكبير: «نظام جديد للحقب». وحتى الثوريون الذين يتقدون حماسًا من أمثال توماس پاين الذى جرد لغته من كافة الشراك الدينية، كان يعبر عن نفسه من منظور المثال الألفى الذى يمكن الرجوع به إلى التراث الرؤيوى فى القدم. ومصير الديمقراطية الأمريكية كما عرفها پاين تدين بشىء للكلمات المكتوبة

فى سفر يوحنا الصغير فى العهود التوراتية القديمة. فأعلن قائلاً: «فى وسعنا أن نبدأ العالم من جديد»[٢٨].

لم يتم التخلى فى أمريكا المستعمَرة عن الأفكار القديمة عن مملكة المسيح الرؤيوية على الأرض بالطبع. فكانت شرارات العقيدة الدينية تنمو من حين لآخر وتتحول إلى لهب بإذكاء الوعاظ مخاوف جمهورهم وآمالهم بالوعظ الزاعق الذى يعد العلامة التجارية المميزة للتبشير الإنجيلى الأمريكى. فكانت روح الإحياء المسيحية دائمًا ما تجذب الحشود إلى قاعات الكنائس واجتماعات الخيام، وتستحث فيهم حالة من الهياج الروحى، حتى أن بعض امتدادات ولاية نيويورك أصبحت تعرف بـ«الأحياء الملتهبة»؛ لأن العوام فيها كانوا شديدى الحساسية لكل موجة جديدة من التعصب الدينى.

كانت حركة الإحياء فى أمريكا «إرهاصًا بشىء هائل» حسب تعبير چوناثن إدواردز (١٧٠٣ ــ ١٧٥٨م) الكاهن البيوريتانى الذى أضرمت مواعظه ما عرف «بالصحوة الكبرى الأولى» بأواسط القرن الثامن عشر. وليس من قبيل المصادفة أن إدواردز كان واضع شرح مفصل على سفر الرؤيا عنوانه «ملاحظات على سفر الرؤيا ـ Notes on the Apocalypse»[٢٩]. يفتتح إدواردز شرحه بنبوءة سفر الرؤيا بأن عدو المسيح سيحكم لمدة ألف ومائتين وستين «يومًا» والتى أولها بمعنى «سنة» وحدد أن حكم كبير الشياطين بدأ فى سنة ٦٠٦م وحسب أنه سينتهى فى حوالى سنة ١٨٦٦م. واعتبر اضطرابات «الصحوة الكبرى» «علامات للألفية التى بدأت مؤخرًا فى نورثهامپتن»، أى تلك البلدة الواقعة بولاية ماستشوستس، والتى كانت تضم منبره الذى يعظ من فوقه[٣٠].

إلا أن بعض رجال الدين الأكثر وعيًا كانوا يتشككون فى حالات الاعتناق الجماعى وانزعجوا من الناس الذين مروا برؤى قوية كهذه فى أثناء اجتماعات «الصحوة الكبرى» قد «سقطوا ضحية نوبات خطيرة من الهياج والتضليل»[٣١]. وعندما اندلعت موجة أخرى من الإحياء فى تسعينيات القرن الثامن عشر عرفت «بالصحوة الثانية» بدأت المثالية الدينية لدى بعض المسيحيين فى أمريكا تعبر عن نفسها بطريقة مختلفة تمامًا. فظهر جيل جديد من المسيحيين يطالبون بإلغاء الرق وتحرير المرأة

كسبيل للتعجيل بحلول المملكة الألفية. وهنا أيضًا كانت بدايات ظهور نسخة أمريكية متميزة من الفكر الرؤيوى: «مزيج عالى الأوكتين [الاشتعال] من الهياج الألفى والتعصب الوطنى» حسب تعبير المؤرخ الحضارى الأمريكى پول بوير عبرت عن نفسها فى محاولة لرفع جودة الديمقراطية الأمريكية»[٣٢].

كانت كآبة سفر الرؤيا وشؤمه أقل جاذبية لدى بناة الأمة الأمريكية المفعمين بالحيوية وسعة الأفق من وعد متى، مثلاً، بأن تكون مملكة السماء مفتوحة لكل من كسى العريان وأطعم الجائع وآوى المشرد. من ثم ترجم التدين المسيحى إلى ما أصبح فيما بعد يعرف بـ«الإنجيل الاجتماعى»، أى الدعوة «لبناء مجتمع على التراب الأمريكى يستحق الرؤية السامية لأورشليم [القدس] الجديدة كما وردت بسفر الرؤيا» يشمل حملة صليبية مبدئية لإلغاء الرق والخمر، وإصلاح السجون، وفتح ملاجئ للمشردين والجوعى، ومصحات للعجزة «أَحَدِ إِخْوَتِى هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ» حسب قول يسوع المسيح[٣٣].

يقول أحد علماء اللاهوت إن «هم المسيحية الأول الحياة الدنيا، ومهمة المسيحية أن تقيم فى الدنيا مملكة عدل، وإنقاذ الإنسان من الشيطان وتحرير علاقاتنا الاجتماعية»[٣٤].

حتى من ظلوا يؤمنون بأن النهاية وشيكة بدءوا فى إعادة توظيف سفر الرؤيا بطرق تتناغم مع القيم الأمريكية القوية من إبداع وراحة مادية وارتقاء المرء بذاته. فصمويل هوپكنز، راعى الكنيسة الطائفية برود آيلند المؤيد لإلغاء الرق فى أواخر القرن الثامن عشر، كان يتصور المملكة الألفية مكانًا «كل الأدوات فيه والثياب والأبنية وما إليها مصنوع بطريقة أفضل وبعمالة أقل كثيرًا» بفضل التحسينات التى طرأت على «كافة أفرع الفنون والعلوم المفيدة التى ترقى بوسائل الراحة الروحية والبدنية فى الدنيا». فلا يحتاج المرء ـ كما تنبأ ـ إلا للعمل لساعتين أو ثلاث ساعات فى اليوم لكسب عيشه، ويمضى ساعات الفراغ فى «المطالعة والتخاطب»، كل ذلك سيتم بلغة عالمية سيتكلمها الجنس البشرى كله. ووعد هوپكنز بأن تتحقق كل هذه النبوءات فيما لا يزيد عن قرنين[٣٥].

وفى خمسينيات القرن التاسع عشر، كان الخط الفاصل بين الإيمان بالرب والإيمان بالتقدم باهتًا بدرجة أكبر. فهناك مجلة منهجية نسائية، مثلاً، أثنت على اختراع التلغراف باعتباره «أداة لنشر الحضارة والمبدأ الجمهورى والمسيحية على الأرض» فيما تطور ليصبح تعريفًا جديدًا حديثًا لمملكة المسيح على الأرض: «حينها تبدأ الألفية»[٣٦]. واعتُبر توسع الولايات المتحدة غربًا ـ وهو مشروع شبِّه بحرب إبادة ضد شعب يسكن الأرض فعلا عند ظهور البيوريتانيين ـ مهمة أقرب إلى الأمر الإلهى.

يقول چون أوسوليڤن فى مقالته فى سنة ١٨٣٩م التى أدخلت مبدأ «المصير المُبين» ضمن المفردات السياسية الأمريكية: «نحن ندخل نطاقًا لم يُعرف من قبل بحقائق الرب فى عقولنا والخير فى قلوبنا وبضمير خالص لا تشوبه شوائب الماضى. وفى حيزها العظيم من المكان والزمان، مقدر للأمة المؤلفة من أمم عدة أن تبين للبشرية المبادئ الإلهية وأن تقيم على الأرض أنبل معبد كُرِّس لعبادة الإله الحق والأعلى»[٣٧].

هناك خط فاصل بين هذين النهجين من فهم الفكر الرؤيوى، اعتنق أحدهما أنصار الإحياء، والآخر آمن به الإصلاحيون. على أحد الجانبين المؤمنون الحقيقيون ممن يرفعون أعينهم نحو السماء يبحثون عن علامة على المجىء الثانى، وعلى الجانب الآخر المؤمنون العمليون ممن عكفوا على بناء المملكة الألفية بأيديهم هنا على الأرض. وتمكنت كثرة من الصادقين بالطبع من الجمع بين الجانبين فى آن. إلا أن مشهد الديمقراطية الأمريكية اهتز مرارًا بسبب الارتجاجات الناجمة عن اصطدام هاتين القوتين.

يفترض فى الفكر الرؤيوى ـ كما رأينا ـ أنه يرتبط بالقهر والاضطهاد. ويقال إن الضحايا يعزون أنفسهم برؤى عن الانتقام كتلك التى تطالعنا بشكل روتينى على صفحات سفر الرؤيا. لكن الحقيقة أن النص قادر على إثارة مشاعر الناس العاديين ممن لا يعانون إلا أخيلة مفرطة فى النشاط. وحتى فى العالم الجديد، مثلا، وحتى فى حقبة سلم ورخاء، كانت فكرة المجىء الثانى ليسوع المسيح ونهاية العالم فكرة مثيرة بالنسبة للأمريكيين الراضين القانعين، كذلك المزارع من شمالى نيويورك الذى يدعى ويليام ميلر (١٧٨٢ ـ ١٨٤٩م).

كان ميلر معمدانيًّا من «الأحياء الملتهبة» لم يتلق أى تعليم عن البحث العلمى التوراتى. إلا أنه فى أثناء خدمته كضابط فى حرب ١٨١٢م مر بتحول فى ساحة المعركة، وعندما عاد للحياة المدنية بمرزعة العائلة كرس نفسه لدراسة الكتاب المقدس. ووقعت عيناه على فقرة فى سفر دانيال حيث يقال للنبى فى إحدى رؤاه إن ألفين وثلاثمائة يوم ستمر ثم بعدها «يَتَبَرَّأُ الْقُدْسُ»[٣٨]. وكمؤلف سفر الرؤيا وما لا يحصى من المنشغلين التوراتيين بالإحصاء غيره، كان ميلر مقتنعًا بأنه تعثر فى سطر من النص المقدس يحوى إشارة مشفرة إلى نهاية العالم، وقضى السنتين التاليتين فى محاولة فك الشفرة.

أدرك ميلر أن الإشارة التوراتية للألفين والثلاثمائة يوم فى الحقيقة تعنى ألفين وثلاثمائة سنة ـ طبعًا! ـ وحدد نقطة بدء العد التنازلى بسنة ٤٥٧ قبل الميلاد باعتبارها السنة التى بدأ فيها يهود السبى فى إعادة بناء هيكل يهوه بأورشليم [القدس]. وقرر أن «حرم القدس» كلمة ترمز للعالم. وبالحساب قدر أن المجىء الثانى ليسوع المسيح وبداية نهاية العالم ستكون فى «لحظة ما فى حوالى سنة ١٨٤٣م»[٣٩]. وكتب ميلر يقول إن «إن النصوص المقدسة تبوح لنا فعلاً وبلغة لا لبس فيها أن يسوع المسيح سيعاود الظهور على هذه الأرض، وأنه سيأتى فى مجد الرب، فى سحب السماء، ومعه القديسون والملائكة جميعًا»[٤٠].

«لم يكن ميلر يهذى أو يتحدث بطريقة صاخبة» بل آثر أن يشرح بأناة موقفه من النصوص المقدسة «بأسلوب هادئ ورزين»[٤١]. فى البدء لم يكن يثق إلا بأصدقائه وجيرانه. إلا أن «الأب ميلر» كما أصبح ينادَى أخذ يجتذب انتباه القساوسة الإيڤانجليكيين وجماهير بلدتهم الصغيرة التى تعيش حول نيوإنجلند فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. ومن بين أتباعه كان بعض الرجال من ذوى الخيال الخصب ممن عرفوا كيف يوصلون رسالة لجموع الناس، وقرروا أن يعلَم بقية الأمريكيين ما ينتظرهم فى المستقبل القريب جدًّا.

وكإحيائيى «الصحوة الكبرى» عقد من عرفوا بأتباع ميلر اجتماعات خيام جذبت الباحثين الصادقين بالآلاف. وكالمبشرين الإيڤانجليكيين التليفزيونيين فى عصرنا الراهن

أحسنوا استغلال أحدث تقنيات المعلومات بأواسط القرن التاسع عشر، أى الطباعة السريعة، لإنتاج المطبوعات والرسائل والمنشورات المصورة بإتقان، من بينها دوريتان بعنوان «صرخة منتصف الليل ـ Midnight Cry» و«علامات العصور ـ Sings of the Times» ـ تشرحان نظريات ميلر المعقدة عن النبوءة التوراتية بلغة بسيطة وجذابة.

بعض معاونى ميلر من متلقى الأجور العالية شجعوه على عمل نبوءة أكثر تحديدًا من «لحظة ما فى حوالى سنة ١٨٤٣م». وبإعادة حساباته وفقًا لما سماه «الحساب اليهودى القديم» طلع ميلر بنبوءة محددة نسبيًّا: عودة يسوع المسيح ستكون بين ٢١ مارس ١٨٤٣م و٢١ مارس ١٨٤٤م. وعندما مرت الفترة المحددة الجديدة دون ظهور أية علامة على المجىء الثانى، ادعى أحد أتباعه الجسورين أنه عثر على خطأ حسابى وحدد اليوم الموعود بالثانى والعشرين من أكتوبر ١٨٤٤م. وفى النهاية وضع الأب ميلر وأتباعه أقلامهم وانتظروا اليوم الذى سيأتى بتحقيق نبوءات سفر الرؤيا القديمة عن المجىء الثانى ليسوع المسيح. وفى أول أكتوبر ١٨٤٤م أعلن ميلر قائلاً: «إن لم يأت فى غضون عشرين أو خمسة وعشرين يومًا سيصيبنى إحباط أكبر مما أصابنى فى الربيع الفائت»[٤٢].

ومع دنو اليوم الموعود، استعد أتباع ميلر لتحية يسوع المسيح وهو يهبط من السماء على أرض العالم الجديد. وهجروا همومهم التافهة على الأرض القديمة إيثارًا للأرض الجديدة التى كانت قاب قوسين أو أدنى. يقول المؤرخ الأمريكى وعالم اللاهوت تيموثى ويبر: «ترك البعض أشغالهم وأغلقوا حوانيتهم واعترفوا بجرائم قُيدت ضد مجهول، وباعوا أراضيهم وكل ما يملكون وتركوا محاصيلهم تنمو دون حصاد حتى يتسنى لهم أن ينشروا بشرى مجىء المسيح ولقائه بضمائر خالصة وبلا ديون»[٤٣]. وتبرع المؤمنون الصادقون بثياب «الصعود» البيضاء طبقًا لبعض الروايات المعاصرة، واحتشدوا على الأسطح فى كل مكان فى «الحى الملتهب» بغرب نيويورك وفى غيره فى سائر أنحاء أمريكا لتحية «حمَل الرب» وهو يهبط من السماء على متن سحابة.

وتحول اليوم العظيم إلى «الإحباط العظيم» كما سماه المؤرخون. يقول مزارع يدعى هيرام إدسن وهو من أتباع ميلر المحبطين: «ضاعت أغلى آمالنا وتوقعاتنا،

وحلت علينا حالة من البكاء لم أعهدها من قبل. وأخذنا نبكى ونبكى حتى طلع الفجر»[٤٤]. ولم يعمل أصدقاؤهم وجيرانهم المتشككون شيئًا لمواساتهم فى حزنهم. بل قال أحدهم متهكمًا: «ماذا! ألم تصعدوا بعد! ظننا أنكم صعدتم! ألستم صاعدين بعد قليل؟ زوجتك لم تتركك وراءها تحترق، أليس كذلك؟»[٤٥].

اهتاج بعض أتباع ميلر لدرجة أن طارت عقولهم أو انتحروا أو هكذا قيل. وندم غيرهم على قراراتهم المتسرعة فى الأيام الأخيرة، ورفعوا دعاوى قضائية يطالبون باسترداد أملاكهم التى ضيعوا دون روية. بينما اكتفى بعض منهم بلوم أنفسهم، ولكنهم واصلوا إيمانهم بأن مشيئة الرب الخفية لنهاية العالم مخبأة بكل تأكيد بين سطور النصوص المقدسة، وأن كل ما هنالك هو أنهم أخفقوا فى العثور عليها.

وأصر الأب ميلر قائلاً: «ما زلت أعتقد أن يوم الرب قريب، بل على الأبواب» وواصل التأكيد على فكرة فحواها أن الفشل المشهود لنبوءته من سبل الرب لإعادة المسيحيين ممن فتر إيمانهم إلى كتبهم المقدسة ليبحثوا عن الحقيقة الإلهية. فالأب ميلر كصاحب رؤى أمريكى أصيل ظل متفائلاً حتى فى تفكيره فى نهاية العالم[٤٦].

ومن بين أتباع ميلر المحبطين كانت فتاة تدعى إيلين وايت (كان اسمها الأصلى هارمون، ١٨٢٧ ــ ١٩١٥م). فى سنة «الإحباط العظيم» وفى سن السابعة عشرة مرت وايت بالرؤيا الأولى من سلسلة رؤاها الإلهية التى بلغ مجموعها فى النهاية ألفين. كانت على يقين من أن ميلر أصاب فى تحديد السنة، ولكنه أخطأ فيما سيحدث فيها. فيسوع المسيح فى رأيها اختار ١٨٤٤م لتكون السنة التى تتحقق فيها نبوءة بسفر الرؤيا أوَّلتها بأنها حدث يمهد للمجىء الثانى والقيامة: «وَانْفَتَحَ هَيْكَلُ اللهِ فِى السَّمَاءِ وَظَهَرَ تَابُوتُ عَهْدِهِ فِى هَيْكَلِهِ وَحَدَثَتْ بُرُوقٌ وَأَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَزَلْزَلَةٌ وَبَرَدٌ عَظِيمٌ»[٤٧].

وبينما واصلت إيلين وايت قراءة سفر الرؤيا وتأويله بإشاراتها الهوسية بالرقم سبعة توصلت إلى أن الرب يريد من المسيحيين أن يراعوا السبت اليهودى ويعتبروه أقدس أيام الأسبوع. وأخذت تؤكد على أن كل من يتمنى أن يعد من زمرة القديسين فى يوم القيامة عليه أن يستعد للخلاص بالإقلاع عن البن والشاى والخمر والتبغ

والاستمناء، وأن يتبع الطهر الجنسى والنباتية (إيلين نفسها «كافحت ببسالة حتى تقلع عن إدمانها على الدجاج المقلى على طريقة الجنوب»)[٤٨]. وفى سنة ١٨٦٣م، أنشأت إيلين وايت وزوجها وهو واعظ يدعى جيمز وايت كنيسة خاصة بهما هى «أدفنتيست اليوم السابع». وكان «نصهما المختار» سفر الرؤيا[٤٩].

كانت «أدفنتيست [المؤمنون بأن المجىء الثانى ليسوع المسيح قريب، المترجم] اليوم السابع» أكبر الكنائس الرؤيوية وأنجحها التى انتشرت وازدهرت غداة «الإحباط العظيم». وهناك أيضًا «الجمعية المتحدة للمؤمنين بالظهور الثانى للمسيح» والتى تعرف باسم «شيكرز»، و«جمعية نقطة برج مراقبة صهيون» التى تغير اسمها فيما بعد ليصبح «شهود يهوه» وغيرهما أصغوا لحالة الطوارئ المعلنة فى الكلمات الختامية بسفر الرؤيا: «نَعَمْ! أَنَا آتِى سَرِيعًا»[٥٠]. ومع ذلك وعلى الرغم من وعيهم بما آل إليه أتباع ميلر من مصير، كانوا دائمًا مضطرين لمواجهة حقيقة واحدة هى أن العالم لا يزال عصيًّا على «أن ينتهى فى موعده».

وهكذا لجأ الأتباع الأوائل لـچوزيف سميث مؤسس كنيسة «يسوع المسيح لقديسى اليوم الآخر» (وربما ليس من قبيل المصادفة أنه نشأ فى «الحى الملتهب») إلى بناء مملكة للقديسين بأيديهم على حدود أمريكا. بل إن طائفة المورمون كانوا روادًا لا يخافون ولا يكلون، جروا عربات اليد الخاصة بهم وارتحلوا عبر أطراف البرارى الصحراوية وصولاً إلى «صهيون الجديدة» بولاية يوتاه. إلا أنهم كانوا مقتنعين أيضًا بأن العلل والرزايا التى ألمت بالعالم من حولهم كانت علامات مؤكدة على «اقتراب يوم عظيم ينتهى فيه مشهد الشر هذا» حسب قول صحيفة «نجمة المساء والصباح ـ The Evening and Morning Star » المورمونية[٥١].

يقول المؤرخ ريتشارد رايتمن فوكس فى كتابه «يسوع فى أمريكا ـ Jesus in America »: «عندما تعلموا أن يتحملوا هذا التوتر، عِلمهم بأن النهاية قريبة ولكن لا يعلمون مدى قربها، اقتربوا كثيرًا من حساسية المسيحيين الأوائل»[٥٢].

وهناك أمثلة أخرى أشد تطرفًا على الدافع الرؤيوى يمكن التعرف عليها فى

السنوات الصاخبة التى تنامت وصولاً إلى الحرب الأهلية. فهناك عبد أمريكى من أصل إفريقى يدعى نات تيرنر (١٨٠٠ ـ ١٨٣١م) وهو واعظ معمدانى غير إكليريكى ذو ميول رؤيوية قوية، ادعى أنه مكلف بإنزال نقمة الرب على أصحاب العبيد بالجنوب الأمريكى. وعندما حدث كسوف شمسى فى سنة ١٨٣١م اعتبره علامة من علٍ، وقاد فرقة من خمسين عبدًا مسلحًا فيما تحول إلى تمرد العبيد الأشد دموية فى التاريخ الأمريكى. وكغيره من الثوار الرؤيويين فى أزمان وأماكن أخرى تم اصطياده ولم يُكتف بإعدامه، بل تم محوه، إذ سُلخ جثمانه وغُليت أشلاؤه حتى تحولت إلى دهن.

ومع ذلك يظل من المهم أن «الصحوة الكبرى» تلاها «إحباط كبير». ويبدو واضحًا أن الأمريكيين يؤثرون تحقيق الحياة والحرية والسعادة فى الحياة الدنيا على التفكير فى أهوال يوم القيامة. وحتى المسيحيون المتدينون كانوا يعتبرون اكتمال الديمقراطية الأمريكية عبر الإصلاح الاجتماعى والسياسى مشروعًا أولى بالجهد من ترقب علامات النهاية. يقول المؤرخ الكنسى الأمريكى چيمس مورهيد: «لا يزال عامة الپروتستانت يؤمنون بأن العالم لا بد أن له نهاية، ولكن ما كانوا ليعترفوا بإمكانية استعجالها»[٥٣].

لم يكن سفر الرؤيا يُقرأ كسفر يتناول «تاريخ المستقبل» إلا على حواف التدين المسيحى الجرداء فى أمريكا. إلا أن الفكر الرؤيوى ـ ولغة سفر الرؤيا الملتهبة ـ كان قد تحول آنذاك إلى جزء من نسيج الثقافة الأمريكية. فالدوافع القديمة للفكر واللغة تأكدت من جديد حين تعرض وجود الولايات المتحدة نفسه للخطر فى الحريق الذى نسميه «الحرب الأهلية» التى لم تكن مجرد صدام مسلح، بل ثورة اجتماعية وكفاحًا حضاريًّا أيضًا.

ينظر الأمريكيون دومًا إلى المستقبل بتفاؤل مرح وثقة شديدة بالنفس. وحتى الپيوريتانيين الحرونين والمولعين بالانتقاد ـ كما رأينا ـ من قبل كانوا قادرين على تصور «أورشليم [القدس] الجديدة» كحاضرة أمريكية مفعمة بالحياة. إلا أن نشوب الحرب الأهلية بما جرته من مذابح هائلة وما شكلته من تهديد لوجود الديمقراطية الأمريكية ذاته، ذكَّر حتى أكثر الأمريكيين ميلاً للمرح بالأحداث الرهيبة التى تنبأ بها سفر الرؤيا. وهكذا أصبح سفر الرؤيا مرة أخرى «ترسانة لغوية» للمتحاربين على كل من جانبى الصراع.

كانت جوليا وارد هاو مثلاً تستلهم مجموعة أيقونات سفر الرؤيا فى «أنشودة معركة الجمهورية»، حيث تمجد «الوميض المقدور لسيفه الماضى الرهيب»، وتستحضر «الكرمة التى تخزَّن فيها تخزين عناقيد الغضب» فى تلميح غير مباشر لفقرة سفر الرؤيا نصها: «فَأَلْقَى الْمَلاَكُ مِنْجَلَهُ إِلَى الأَرْضِ وَقَطَفَ كَرْمَ الأَرْضِ فَأَلْقَاهُ إِلَى مَعْصَرَةِ غَضَبِ اللهِ الْعَظِيمَةِ»[٥٤]. وهناك سطر أقل شهرة بالأنشودة الشهيرة نفسها يحمل إشارة أكثر حرفية إلى فقرة بسفر الرؤيا تصور المعركة الفاصلة بين حمل الرب وإبليس المتخفى فى هيئة تنين أحمر: «دع البطل وليد المرأة يسحق الأفعى بكعبه»[٥٥].

بل إن سفر الرؤيا كان يمثل نموذجًا للخطباء والدعاة فى كل من الجبهتين المتحاربتين «الاتحاد» و«التحالف» اللذين سعيا لحشد القوات وشد أزر المدنيين فى مدنهم. فقال أحد الوعاظ فى خطبة تم نسخ نصها ليوزع على جنود الاتحاد فى مجموعة خطب ومواعظ بعنوان «المسيح فى الجيش ـ Christ in the Army»: «الرب يحشد الأمم لخوض الصراع العظيم الأخير بين الحرية والعبودية، بين الصواب والخطأ. نحن أيها الإخوة المواطنون على أبواب فترة تنبأ بها أنبياء القدم، وتاق إليها وسعى من يحبون وطنهم فى الأجيال السابقة، فترة انتظر الملوك والأنبياء أن يشهدوها، فترة الإطاحة بالاستبداد وسقوط عدو المسيح»[٥٦].

ولكن عندما انتهت الحرب الأهلية وجدت أمريكا نفسها فى عالم لم يتنبأ أنبياء القدم بأى شىء فيه. وبدأ الأمريكيون فى هجر مزارعهم وبلداتهم الصغيرة ونزحوا إلى المدن الكبرى بأعداد متزايدة. الورش القروية حلت محلها مصانع تجشؤ التبغ من النوع الذى يسميه بليك «طواحين الشيطان». والعربات التى تجرها الجياد أزاحها دخان القاطرات. وومضت الاتصالات عبر أرجاء القارة على خطوط التلغراف أولاً ثم على أسلاك الهاتف. كانت أمريكا أمة من المهاجرين منذ وضع أول قس من الحجيج قدميه على «صخرة پليموث» بالطبع، ولكن كانت كل من إليس آيلند وإينچل آيلند قد بدأت تعج بالوافدين الجدد من أماكن غريبة فى كافة أنحاء أوروپا وآسيا.

كانت كل هذه الظواهر دليلاً على نجاح التجربة الأمريكية، ولكن ليس كل مقيم

كان يرحب بالوافدين الجدد أو بأنماط الحياة الجديدة. فلاحت فى الأفق نذر حرب حضارية جديدة، حيث كان وجه أمريكا المتغير يراه بعض المراقبين مسيرة نحو التقدم ويراه غيرهم اضمحلالاً وانهيارًا للحضارة. وكان من سبل فهم ومقاومة العالم الجديد الجرىء الذى كان الأميريكيون يحيون فيه آنذاك هو الموقف الدينى الذى يعرف بـ«الأصولية البروتستانتية»، أى العودة إلى ما كان يُعتقد أنه قيم أقدم وأكثر أصالة فى الحضارة والسياسة والدين. وهكذا فإن أحدث أجيال أنصار الحرفية التوراتية ممن عرفوا بـ«أنصار ما قبل الألفية» نظرًا لأنهم كانوا يؤمنون بأنهم يعيشون آخر حقبة قبل المجىء الثانى ومملكة يسوع المسيح الألفية أصبحوا على اقتناع بأنهم يشهدون علامات آخر الزمان كما تنبأ بها سفر الرؤيا.

يقول تيموثى ويبر: «كان يبدو أن كل أنصار ما قبل الألفية يراهنون على تحلل الحياة الحديثة. فالحقبة المضطربة التى تلت الحرب الأهلية كانت تدل على أن كل شىء يسير حسب التوقيت المحدد»[٥٧].

يستعمل مصطلح «نظرية ما قبل الألفية» ونظيره القريب منه «ما قبل الألفية التدبيرية» لوصف الموقف الغيبى لفرع واحد من الأصولية المسيحية؛ الإيمان بأن يسوع المسيح سيعود إلى الأرض ويحكم المملكة الألفية كما ورد بسفر الرؤيا تمامًا. أى أن أنصار ما قبل الألفية كانوا يرفضون الاكتفاء بقراءة الرؤيا قراءة مجازية، وكانوا مقتنعين بأنهم سيشهدون بأعينهم الفانية مشهد يسوع المسيح وهو يهبط من السماء على متن سحابة ليستقر على عرش أرضى ويحكم مملكة من القديسين لألف سنة. إذن فالمجىء الثانى ليسوع المسيح يعد بالنسبة لأنصار ما قبل الألفية «مجيئًا فعليًّا وحرفيًّا وجسديًّا»[٥٨].

تقوم «نظرية ما قبل الألفية» من حيث المبدأ على الإيمان بأن يسوع المسيح سيعود إلى الأرض قبل نشأة المملكة الألفية؛ فى حين تقوم «نظرية ما بعد الألفية» على اقتناع بأن يسوع المسيح لن يعود إلا بعد قيام المملكة الألفية من خلال «انتصار الكنيسة المثلى وحكمها» و«التطور الإنسانى والتقدم الأخلاقى المتحقق بجهود المسيحيين المتدينين فى العصر الحاضر»[٥٩]. وهكذا فإن «نظرية ما بعد الألفية» كقاعدة عامة تميل للتركيز على حسن الأعمال فى الحياة الدنيا، بينما تميل «نظرية ما قبل الألفية» للتركيز على السماء

أملا فى رؤية يسوع المسيح وهو يهبط على متن سحابة مجد. بعبارة أخرى كان أتباع الأب ميلر من أنصار «نظرية ما قبل الألفية» بينما كان أتباع «الإنجيل الاجتماعى» من أنصار «نظرية ما بعد الألفية». إلا أن كلا المعسكرين كان يعتنق الفكر الرؤيوى، ولم يختلف إلا حول توقيت نهاية العالم.

يعترف عالم اللاهوت المؤيد لنظرية «ما بعد الألفية» ويليام نيوتن كلارك (١٨٤١ ـ ١٩١٢م) قائلاً: «النظرية وضعت النهاية بعيدًا إلى ما لا نهاية، ومع ذلك فإنى أصغيت مرتجفًا لبوق الرب فى كل صاعقة»[٦٠].

لم يكن أى من هذه المفاهيم جديدًا تمامًا حين طفت على السطح فى سنوات ما بعد الحرب الأهلية. بل كان الجدل بين من كانوا يقرءون سفر الرؤيا «حسيًّا» ومن كانوا يقرءونه «روحيًّا» يرجع لأوغسطين. لكن نيران الإيمان الرؤيوى الحق تأججت وصارت لهيبًا من جديد، واستعر أوارها فى العالم الجديد كما استعر فى أى وقت مضى منذ أعلن مونتانوس ونبيتاه أول مرة أن «أورشليم [القدس] الجديدة» ستهبط من السحب فى أية لحظة.

ومع ذلك، فالمؤمنون الرؤيويون الصادقون فى أمريكا القرن التاسع عشر أصروا على التركيز من جديد على أقدم النصوص. ومن الغريب أن أنصار الحرفية التوراتية كانوا على أتم استعداد لتحريف النص المقدس حين يتعلق الأمر بالمشهد المزعج لما سيحدث للمسيحيين الأتقياء فى آخر الأزمان. فكان لىّ الحبكة الذى أدخلوه على سيناريو الرؤيا الكئيب المشئوم أكبر تجديد يشهده التراث الرؤيوى منذ سرد يوحنا الرؤى التى تراءت له بجزيرة پطمس. ومما يذكر أن الوعاظ الرؤيويين أعادوا كتابة تاريخ نهاية العالم بأسعد النهايات.

تبين القراءة البسيطة لسفر الرؤيا أن كل البشر على الأرض ـ من رجال ونساء وأطفال، الأتقياء منهم والمذنبون على السواء ـ مقدر لهم أن يتحملوا ما سيصيب البشرية على يد عدو المسيح فى آخر سنين الاضطهاد والقهر فيما يعرف بـ«الضيقة». ولن يُبعث القديسون الموتى والشهداء من قبورهم ولن يسمح لهم بالاستمتاع بثوابهم العادل فى المملكة الآتية إلا بعد زوال الضيقة.

إلا أن بعض المسيحيين المرحين فى أمريكا القرن التاسع عشر، أبوا أن يؤمنوا بأنهم سيطالبون بتحمل هذا العذاب، وأصروا على اعتناق رؤية جديدة ومبتكرة عن نهاية العالم. وآثروا الإيمان بأن المسيحيين الذين يستحقون الخلاص سيُخطفون بطريقة معجزة ويرفعون إلى السماء قبل أن تبدأ «الضيقة» فى التفاقم. وسيوهبون فى جلستهم فى شرفات الجنة ميزة النظر لأسفل ورؤية كل من تُرك على الأرض للمعاناة والموت على يد عدو المسيح. ولن يعودوا إلى الأرض بصحبة يسوع المسيح ليسكنوا المملكة الألفية إلا بعد انتهاء «الضيقة». وأصبح ابتكارهم اللاهوتى المريح يعرف بـ «الخطف» أو «الاختطاف».

لا ذكر للفظ «خطف» أو مفهومه بأى موضع من سفر الرؤيا. فمفهوم «الخطف» برمته يقوم على سطرين فى نص توراتى فى «رِسَالَةِ بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولى إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيكِي» وهى أقدم كتابات بولس وربما كانت أقدم وثيقة فى العهد الجديد. ويبدو أن بولس كان يؤمن بأن الأحداث العجيبة التى يصف ستقع فى حياته لا فى فترة مجهولة فى المستقبل: «لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِهُتَافٍ بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ وَالأَمْوَاتُ فِى الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً؛ ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِى السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِى الْهَوَاءِ وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ»[٦١].

إلا أن فكرة «الخطف» لم ترقَ إلى شرط للإيمان بين الأصوليين المسيحيين إلا فى أواخر القرن التاسع عشر، وفى أمريكا فى المقام الأول. بل إن الفكرة برمتها نسبت لواعظ أنجلو ـ أيرلندى يدعى چون نلسن داربى (١٨٠٠ ـ ١٨٨٢م) وجد جمهورًا يقدر تعاليمه الجديدة على مدى سبع جولات فى أمريكا بين ١٨٥٩ و١٨٧٧م. ومن الباحثين من يرجعون بعناصر عدة من عقيدة داربى الرؤيوية الجديدة إلى مصادر تبدأ بيواقيم الفيورى، وتنتهى بإنكريز ماذر، بل إن داربى اتهم بسرقة فكرة «الخطف» برمتها من فتاة تدعى مارجريت مكدونالد، وهى مجذوبة دينية إسكتلندية كانت فى الخامسة عشرة من عمرها. ويؤكد داربى نفسه أن «العقيدة مستقاة من صفحات

النصوص المقدسة»[٦٢]. ولكن أيًّا كان مصدر إلهامه، تبقى حقيقة مفادها أن داربى كان مجددًا أصيلاً أفلح فى جذب جمهور متحمس يصدقه فى العالم الجديد.

كان داربى مجرد واعظ آخر حر وأحد أدعياء النبوة ممن يزدحم بهم تاريخ التراث الرؤيوى. ففى سن الخامسة والعشرين تم ترسيمه كاهنًا بكنيسة أيرلندا، وهى المقابل الأيرلندى لكنيسة إنجلترا، ولكنه ما لبث أن انشق وأنشأ جماعته الصغيرة من المنشقين الدينيين ممن عرفوا باسم «إخوة پليموث». وبدءًا من سنة ١٨٤٠م شرع داربى فى التبشير بفكرة «الخطف» البراقة الجديدة فى سويسرا أولاً ثم فى الولايات المتحدة. ولقى وعده المريح بأن المسيحيين الأتقياء سيعفون من مأزق «الضيقة» ـ «وهو حل بارع لمشكلة شائكة» كما يشير تيموثى ويبر ـ ترحيبًا من زملائه من رجال الإكليروس الأصوليين المسيحيين فى أمريكا[٦٣]. وقال داربى فى حماس فى أعقاب زيارته السابعة والأخيرة لأمريكا: «إن تعاليم الفكرة تنتشر بصورة مذهلة»[٦٤].

كان من بين من روجوا لتعاليم داربى فى أرجاء أمريكا واعظ يدعى دوايت مودى (١٨٣٧ ـ ١٨٩٩م) يوصف بأنه «الإيڤانجليكى الذى فاق غيره فى أمريكا فى نشر الآراء قبل الألفية عن النهاية الوشيكة»[٦٥]. وكأتباع ميلر ممن أحسنوا استغلال أحدث تقنيات الطباعة فى إنتاج كميات هائلة من أوراق الدعاية الدينية، قام «معهد مودى للكتاب المقدس» بالتبشير بالمبدأ الجديد فى العقيدة المسيحية الحقة عن طريق دار النشر الخاصة به ثم من خلال محطة إذاعة قوية مهدت للتبشير الإيڤانجليكى التليفزيونى بأواخر القرن العشرين. يقول مودى: «أنا أرى الدنيا كوعاء مهشم، وأعطانى الرب قارب نجاة وقال لى: يا مودى، أنقذ كل من وسعك إنقاذه»[٦٦].

وكان المتحول الأمريكى الآخر الذى اعتنق قراءة داربى لسفر الرؤيا سايروس سكوفيلد (١٨٤٣ ـ ١٩٢١م) وهو بيطار من جيش التحالف [الكونفيدرالى أو الذى أراد استقلال الولايات الجنوبية مما تسبب فى الحرب الأهلية] أمضى بعض الوقت بالسجن بتهمة التزوير قبل أن يمر بتجربة تحول دينى وتكريس نفسه لتأويل المعانى النبوئية التى صادفها فى الكتاب المقدس. نشر ما عرف بـ«الكتاب المقدس المرجعى لسكوفيلد ـ

Scofield Reference Bible» ــ وهى إصدارة من طبعة الملك چيمس أضاف سكوفيلد شروحه على هوامشها ـ أول مرة فى سنة ١٩٠٩م وبيع منها أكثر من عشرة ملايين نسخة قبل أن تتم مراجعتها وإعادة نشرها فى فترة لاحقة فى القرن نفسه. وحقق سكوفيلد، فى رأى پول بوير، انتشارًا بلغ حد أن العديد من المسيحيين الإيڤانجليكيين «كانوا يجدون صعوبة فى تذكر مصدر فكرة ما: أمن النص المقدس نفسه كانت أم من هوامش سكوفيلد؟»[٦٧]. وفيما بين مودى وسكوفيلد حظيت فكرة «الخطف» العصرية وسائر البدع اللاهوتية العديدة لچون نلسن داربى بمكانة الحقيقة المنزلة فى السنوات الأولى من القرن العشرين. وهناك محاكاة ساخرة لأنشودة إيڤانجليكية تقول: «آمالى لا تقل عن هوامش سكوفيلد ومطبعة مودى»[٦٨]. رسمت الأصولية المسيحية من النوع الذى أيده أناس من أمثال مودى وسكوفيلد خطًّا صداميًّا فى حرب حضارية على من اعتبرتهم عملاء الشيطان فى أمريكا «الترياق الأمثل ضد الكفر والسد المنيع أمام الليبرالية والعقائد الزائفة» على حد تعبير روبن تورى (١٨٥٦ ــ ١٩٢٨م) مشرف «معهد مودى للكتاب المقدس» وواعظ إحيائى، ويقصد بـ «العقائد الزائفة» الظواهر المرفوضة فى العالم الحديث[٦٩]. ويؤكد مودى نفسه قائلاً: «لا أجد ما يثبت أن الرب قال إن العالم سيسير نحو الأفضل. بل أرى أن الأرض تتجه من سيئ لأسوأ»[٧٠].

وما احتفى العالم به باعتباره مسيرة الحضارة، أدانه الأصوليون البروتستانت بوصفه من خفايا مؤامرة شيطانية. فندد سكوفيلد فى شروحه على سفر الرؤيا فى «الكتاب المقدس المرجعى لسكوفيلد» قائلاً: «حشد الشيطان عالم البشرية الضال حول مبادئه الكونية من قوة وجشع وأنانية وطمع ومتعة. إن النظام العالمى الحالى... قوى ومهيب ومسلح بجيوش وأساطيل، وهو متدين فى الظاهر وعلمى ومثقف وأنيق، ولكنه مضطرم بالمنافسات والمطامع القومية والتجارية، ولا يحل أية أزمة حقيقية بالقوة المسلحة، وتسيطر عليه المبادئ الشيطانية»[٧١].

وكما استنكر مؤلف سفر الرؤيا بيع السلع وشراءها فى الأسواق الرومانية وشكك فى الروابط الوثنية التى قد يجد الصناع المسيحيون ما يغريهم بالانضمام إليها، فإن بعض

الأصوليين المسيحيين فى أمريكا كانوا ينددون بـ«تكديس الثروة» فى الأعمال الضخمة ـ«دوامة من سفه مجنون ويدفع للجنون» حسب تعبير أحد الوعاظ الإيڤانجليكيين[٧٢]ـ ويعتبرون أختام النقابات على سلع المصانع «وسم الوحش». وكما كان يوحنا يستاء من متع حضارة الرومان، كان الأصوليون المسيحيون يدينون ملاهى الثقافة الشعبية وضلالاتها فى أمريكا الحديثة. وكان القس تورى، مثلاً، مستعدًّا للتسليم بأن «الرقص ليس خطيئة طالما لم يجمع الرجال بالنساء»، إلا أن بعض الرقصات الحديثة ـ ومنها الفوكس تروت والشيمى والشارلستون ـ كانت «لا تقل عن إباحية»[٧٣].

شكا أحد المراقبين المسيحيين الغاضبين قائلاً: «إن العديد من الفتيان والفتيات الذين يؤدون هذه الرقصات ينبغى أن تكون لديهم تراخيص زواج قبل النزول إلى ساحة الرقص، ولو كانت لديهم تراخيص زواج فلا عذر لهم فى اقتراف أفعال كهذه على الملأ»[٧٤].

ومع ذلك فالأصوليون البروتستانت فى أمريكا كانوا دائمًا ينظرون إلى الجانب المشرق من يوم القيامة. ففى العالم القديم، كانت قارئة كاثوليكية متعصبة لسفر الرؤيا كالراهبة الفرنسية تيريز ليزييه يثيرها مشهد «الضيقة»: «عندما أفكر فى العذاب المقدر على المسيحيين فى عهد المسيح الدجال أحس بأن قلبى يكاد يقفز فرحًا، وكنت أتمنى أن يُستبقى هذا العذاب لى»[٧٥]. لكن بعض المسيحيين هنا فى أمريكا كانوا يؤثرون الإيمان بأنهم سيفلتون من كل هذا العذاب حين «يُخطفون» أولاً إلى السماء ثم يعادون إلى الأرض ليحكموا المملكة الألفية جنبًا إلى جنب مع يسوع المسيح.

كان چون داربى قد أعلن فى أواسط القرن التاسع عشر قائلاً: «لنتذكر شيئًا واحدًا هو أننا نحن معشر المسيحيين فى أمان من العاصفة الوشيكة»[٧٦]. وكان روبن تورى يؤكد الرسالة المطمئنة نفسها فى السنوات الأولى من القرن العشرين، فكان يعلن قائلا: «العاصفة ستكون قصيرة، وبعد العاصفة هناك يوم ذهبى لم يرد حتى فى أحلام الفلاسفة والشعراء»[٧٧].

ومن الغريب أن بعض المتحمسين الرؤيويين ممن كان يسعدهم إمكانية مشاهدة

«الضيقة» من علٍ، كان يشقيهم أيضًا مصير تلك الأرواح التعسة التى تظل مرتبطة بما يسميه يوحنا «مجمع الشيطان». وكان قراء سفر الرؤيا الواعون يركنون إلى أن مائة وأربعة وأربعين ألفًا من الذكور الأبكار من أسباط بنى إسرائيل «سيُختمون» فى آخر الأزمان، ولكن ماذا عن بقية الشعب اليهودى؟ هنا أيضًا قدم چون داربى نهجًا جديدًا مفزعًا لفهم قصة سفر الرؤيا ولا سيما المصير الخاص المقدر للشعب اليهودى فى آخر الأزمان.

ليس من كل المفارقات التى أصبحت ترتبط بسفر الرؤيا ما يساوى فى غرابته علاقة المحبة والبغض بين القراء الأصوليين المسيحيين والشعب اليهودى. فمؤلف سفر الرؤيا ـ كما سبق أن رأينا ـ يدين معاصريه اليهود لرفضهم مسيحانية يسوع الناصرى، ويبين أن اليهود سيظلون أبدًا فى معية الوثنيين والمسيحيين غير المتدينين فى بحيرة من نار. ومع ذلك، فإن بعضًا من أشد قراء سفر الرؤيا حماسًا فى أمريكا يفاخرون بأنهم «صهاينة»، ويفعلون ذلك بوازع من لب عقائدهم الرؤيوية.

إن «الصهيونية المسيحية» تبدو أحيانًا كاجتماع متناقضين؛ لأن التراث الرؤيوى المسيحى يحمل دائمًا وصمة معاداة السامية. فالأدب الشعبى الرؤيوى منذ أواخر العصور القديمة ـ كما سبق أن أشرنا ـ أصبح يشتمل على فكرة مفادها أن عدو المسيح سيكون رجلاً يهوديًّا من نسل إبليس، وغانية يهودية فى ماخور بابلى. وعلى أحسن الفروض، يساور بعض قراء سفر الرؤيا المعادين للسامية أمل خافت فى أن ينقذ بعض اليهود على الأقل أنفسهم من نار الجحيم بالإقرار بأن يسوع هو المسيح.

يرى يواقيم الفيورى مؤلف رسالة عنوانها الصريح «ضد اليهود» أن الشعب اليهودى سيتبع عدو المسيح حتى آخر الزمان حيث تتحول قلة منه إلى المسيحية فى آخر لحظة ممكنة. ووجدت الفكرة نفسها طريقها إلى اللاهوت البروتستانتى على يد مارتن لوثر. فيقول لوثر فى رسالة له بعنوان «ضد اليهود وأكاذيبهم»: إن اليهود إذا اعترفوا بيسوع المسيح «سيسعدنا أن نسامحهم»، أما إذا لم يفعلوا «فلا ينبغى لنا أن نتهاون معهم أو نألم لهم»[٧٨].

كانت الخرافة والعقيدة الرؤيوية تتصور أن الشعب اليهودى سيعود إلى أرض

إسرائيل فى آخر الأيام، ولكن بعواقب وخيمة. فهناك على سبيل المثال نص بعنوان «المسيح وعدو المسيح» يرجع للقرن الثالث، يرى أن عدو المسيح سيعيد بناء الهيكل فى أورشليم [القدس] ويعيد الشعب اليهودى من البقاع التى نفى إليها ثم يبدأ حقبة جديدة من اضطهاد المسيحيين لا تنتهى إلا «حين يأتى المسيح مرة أخرى فى مجده يسبقه إيليا ويوحنا المعمدان»[٧٩]. وكما يبين مؤلف سفر الرؤيا، فإن دماء الجيش اليهودى المهزوم التابع لعدو المسيح سيبلغ ارتفاع لجام حصان فى طرقات أورشليم [القدس].

وهناك صورة أكثر إشراقًا رسمها وعاظ العالم الجديد الرؤيويون. فتنبأ إنكريز ماذر فى كتابه «لغز خلاص بنى إسرائيل تفسيرًا وتطبيقًا ـ The Mystery of Israel's Salvation Explained and applied» (١٦٦٩م) بأن الشعب اليهودى «سيعاد مرة أخرى إلى أرضه» وأنه ما أن يعود إلى مكان إسرائيل القديمة سيتحول إلى المسيحية ويصبح «أمجد أمة فى العالم»[٨٠]. وتعهد كاهن مشيخى ببناء مراسٍ فى نيوهيفن ينطلق منها اليهود المسافرون لأرض إسرائيل، وأعلن فى سنة ١٨٠٠م أن «عودة اليهود إلى أرضهم مؤكدة».

لكن إعادة الشعب اليهودى لأرضه اتخذ، مثله مثل «الخطف»، درجة جديدة من القوة والنفوذ فى تعاليم جون داربى. فخرج من دراسته الكتاب المقدس العبرى بفكرة عن دور الشعب اليهودى فى آخر الزمان اعتُبرت من «أميز سمات عقيدته وأكثرها إثارة للجدل»[٨١]. وتلخيصًا لنظرية داربى المفصلة، نقول إنه ادعى أن الرب قدر للشعب اليهودى مصيرًا، وللكنيسة المسيحية مصيرًا غيره، لكن مرحلتى نهاية العالم فى التقدير الإلهى متداخلتان، وبالتالى فالخلاص الأخير للمسيحيين يتوقف على ما كتب الرب على الشعب اليهودى.

وبما أن داربى كان مقتنعًا بأن كل النبوءات التوراتية لا بد أن تتحقق، بما فى ذلك النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس العبرى الموجه إلى بنى إسرائيل، فإنه استنتج أن الرب سيفى بوعده برد أرض إسرائيل «للشعب المختار» وإعادة بناء هيكل أورشليم [القدس] قبل إنهاء العالم. بل إن تجمع الشعب اليهودى فى وطنه القديم

بفلسطين أصبح علامة وشرطًا لازمًا فى آن معًا للمجىء الثانى، وهزم الشيطان، وبناء «السماء الجديدة والأرض الجديدة». وهكذا أصبح للشعب اليهودى دور غير متعمد، ولكنه حاسم فى آخر الزمان فى تصور الرؤيويين الواضح فى أمريكا.

تزامن التقدير الإلهى للشعب اليهودى فى سيناريو داربى لآخر الزمان فى صدفة مصيرية مع نشأة الصهيونية السياسية الحديثة بأواسط القرن التاسع عشر. وكانت تحرك الحركة الصهيونية دوافع سياسية لا دينية؛ إذ سعى الصهاينة لإنقاذ اليهود رجالاً ونساء وأطفالاً من مخاطر معاداة السامية فى أوروبا، وكانوا يؤمنون بأن عيش اليهود فى دولة ضرورى لبقاء اليهود. بل إن الحركة الصهيونية فى روسيا وشرقى أوروبا كانت متأصلة فى نظريتى الاشتراكية والقومية العلمانيتين لا فى التطلع الدينى للشعب اليهودى للعودة إلى صهيون فى العهد المسيحانى، لذا فإن تيودور هرتزل (١٨٦٠ـ ١٩٠٤م) وهو صحفى يهودى مندمج تمامًا فى ڤيينا، وأصبح يعد أبا الصهيونية الحديثة ـ كان مستعدًّا تمامًا لقبول الأرچنتين أو أوغندا مكانًا لوطن يهودى إن لم تكن أرض إسرائيل التوراتية ممكنة.

كان أعدى أعداء الصهيونية الأولى فى الحقيقة من اليهود المتدينين الذين رأوا أن الشعب اليهودى سيعاد إلى أرضه حين يرسل الرب المسيح فى التوقيت الذى يشاء ليعيدهم إليها. وكانت هناك دائمًا قلة من اليهود المتدينين تتجه إلى فلسطين التى كانت من أقاليم الإمبراطورية العثمانية ليقضوا أيامهم الأخيرة فى التعبد وليدفنوا فى الأرض المقدسة حين توافيهم المنية. أما فكرة هجرة اليهود بأنفسهم وبصورة جماعية إلى الأرض المقدسة كطليعة لدولة يهودية حديثة وذات سيادة، فكانت فى رأى المتدينين اليهود ردة وكفرًا، فهى خطيئة «فرض النهاية عنوةً»؛ لذا فإن الصهيونية كانت تعتبر «البدعة القصوى» فى نظر أكثر اليهود تدينًا[٨٢].

هنا ننتبه إلى اختلاف كبير بين الفكر الرؤيوى فى اليهودية والمسيحية. فهزيمة حركة تمرد بار كحبا على يد سادة يهوذا الرومان فى القرن الثانى ـ كما سبق أن رأينا ـ ساعد على إضعاف التوقعات المسيحانية لدى الشعب اليهودى. فعلى النقيض من وعد يسوع المسيح فى سفر الرؤيا ـ «نَعَمْ! أَنَا آتِى سَرِيعًا»[٨٣] ـ فإن واحدة من ثلاث عشرة مقالة

فى الديانة اليهودية وضعها ابن ميمون تقر بأن المسيح لن يأتى فى القريب العاجل: «أنا أؤمن إيمانًا تامًّا بمجىء المسيح، ومع أنه قد يتأخر فإنى سأنتظر مجيئه يومًا بيوم»[٨٤].

والعواقب الوخيمة لـ «فرض النهاية عنوةً» رُمز لها فى التاريخ اليهودى بالمثال التعس لمدعى المسيحانية المسمى شبتاى زيفى (١٦٢٦ ـ ١٦٧٦م). بدأ شبتاى زيفى فى سنة ١٦٦٦م فى اللعب على آمال الشعب اليهودى بادعاء أنه المسيح الذى طال انتظاره وتأخر كثيرًا والذى سيخلصهم من الاضطهاد والظلم. وكما فعل أتباع ميلر فى أمريكا بعد ذلك بقرنين، تخلى أتباع شبتاى زيفى فى غمرة حماسهم عن بيوتهم وحوانيتهم وحقولهم فى كافة أنحاء أوروبا عن إيمان تام بأنه «سيحملهم على سحابة إلى أورشليم [القدس]» فى أية لحظة[٨٥]. وأعلن شبتاى زيفى عبارة تنم عن تعطش للدم ليست غريبة على قراء سفر الرؤيا حيث قال: «يوم الانتقام فى قلبى، وسنة الخلاص حلت. سأنتقم لكم قريبًا وأريحكم»[٨٦].

أقام شبتاى زيفى بدار خارج القسطنطينية تحول إلى قبلة لليهود ما لبثت حتى فاقت حائط المبكى بأورشليم [القدس]، ولفتت مزاعمه الاستفزازية السلطات العثمانية. وكما فعل بونتياس بيلاتى الذى اعتبر مزاعم يسوع الناصرى المسيحانية تهديدًا سياسيًّا للإمبراطورية الرومانية، انزعج السلطان الأعظم لوضع شبتاى زيفى وهو يحكم كأنه ملك فى أحد أقاليم الإمبراطورية العثمانية. فتم القبض على المسيح المزعوم وعلق فى سلاسل وتم تخييره بين الإسلام والموت، وكسر قلوب أتباعه اليهود بإيثاره الإسلام على الموت. وبعد ارتداد شبتاى زيفى العلنى أصبح كل من يسعى «لفرض النهاية عنوة» موضع ريبة بل ازدراء فى التراث اليهودى.

أما المسيحيون المؤمنون حقًّا، فبشرتهم عقيدتهم الرؤيوية بأن إعادة الشعب اليهودى لأرضه بأية وسيلة ممكنة يعد علامة مؤكدة لمجىء المسيح. وبالطبع كان هذا هو المجىء الثانى للمسيح كما تنبأ به سفر الرؤيا، وكان يعرف بالمقابل المسيحى للكلمة: «عيسى». وهكذا فإن بعضًا من الجهود الأولى للصهاينة العلمانيين بل المعادين للدين فى المطالبة برد أرض إسرائيل للشعب اليهودى كانت موضع مراقبة دقيقة فى الأوساط الرؤيوية المسيحية فى أمريكا.

أوردت الصحف والمجلات المسيحية فى أمريكا بكل اهتمام وحماس أنباء نشر «الدولة اليهودية» بيان هرتزل الرسمى للصهيونية السياسية واندلاع حوادث معاداة السامية فى روسيا وفرنسا وغرس المستعمرات اليهودية الأولى فى أرض فلسطين. وكان المراسلون المسيحيون حاضرين فى بازل لحضور «المؤتمر الصهيونى» فى سنة ١٨٩٨م و«أخذوا يتكهنون حول موعد بدء تفكير المهاجرين اليهود فى بناء هيكل جديد فى أورشليم [القدس]» ، وهى فكرة كانت ستصدم أى يهودى متدين وتشينه ، وما كانت لتخطر على بال الاشتراكيين والقوميين اليهود[٨٧].

كان بعض الصهاينة المسيحيين فى الحقيقة يفكرون بجد فى مشروع بناء الدولة اليهودية قبل نظرائهم اليهود بمدة طويلة. فكان ويليام يوجين بلاكستون (١٨٤١ ـ ١٩٣٥م) وهو مقاول تحول إلى التبشير الرؤيوى مقتنعًا بضرورة عودة اليهود إلى صهيون حتى يتحقق المجىء الثانى ، لدرجة أنه أخذ على عاتقه مهمة جعلها بندًا فى السياسة الخارجية الأمريكية. فجمع بلاكستون توقيعات أكثر من أربعمائة من كبار أهل السياسة الأمريكيين وأباطرتها على التماس يدعو الرئيس بنيامين هاريسون لنصرة قضية إنشاء وطن يهودى. وفى الخامس من مارس ١٨٩١م ـ أى قبل تدوين هرتزل بيانه «الدولة اليهودية» بخمس سنوات ، وقبل عقده أول مؤتمر صهيونى بست سنوات ـ سلم بلاكستون التماسه للبيت الأبيض. يقول بلاكستون فى التماسه : «لم لا نرد فلسطين لهم؟ لنرد لهم الآن الأرض التى سلبهم إياها بكل قسوة أسلافنا الرومان»[٨٨].

كان بلاكستون بصورة من الصور أكثر صهيونية من مؤسس الصهيونية الحديثة. وحين أعلن هرتزل الفكرة العملية بأن بناء مستعمرة يهودية فى شرقى إفريقيا الخاضع لبريطانيا سيكفى طالما ظلت فلسطين بعيدة المنال. فأرسل له بلاكستون بكل جرأة نسخة من الكتاب المقدس العبرى وضع فيه خطوطًا ـ على الطريقة «قبل الألفية» حسب تعبير تيموثى ويبر ـ تحت الفقرات التوراتية التى أقنعت داربى وأتباعه بأن استعادة اليهود فلسطين كانت وعدًا إلهيًّا وتفويضًا إلهيًّا. وكوفئ بلاكستون نفسه على جهوده بأن هُتف له فى مؤتمر يهودى عقد فى فيلادلفيا فى سنة ١٩١٨م بأنه «أبو الصهيونية»[٨٩].

ومع ذلك كان بلاكستون أكثر صراحة من العديد من مؤيدى الصهيونية من المسيحيين غيره فى كشف الأساس اللاهوتى لالتزامه بوطن يهودى فى فلسطين. مثل كل من يواقيم الفيورى ومارتن لوثر وإنكريز ماذر، كان چون داربى يبشر ـ وبلاكستون يؤمن ـ بأن اليهود الذين سيعودون إلى أرض إسرائيل، كتبت عليهم المعاناة والموت فى عهد عدو المسيح والاحتراق فى نار الجحيم فى الأبدية. وكانوا يؤكدون أنه لن يُبعث للحياة فى «أورشليم [القدس] الجديدة» من اليهود إلا من تحول إلى المسيحية قبل فوات الأوان.

وفى اجتماع حاشد للصهاينة فى لوس أنچيليس فى سنة ١٩١٨م ـ على سبيل المثال ـ أعلن بلاكستون مرة أخرى أنه «من أكبر مؤيدى الصهيونية»، ولكنه فى الوقت نفسه كشف عن إيمانه بأن أى يهودى لا يؤمن إلا بالصهيونية يطأ طريقًا «يفضى لندم ليس بعده ندم». وأكد أن الطريق الأقوم هو «اعتناق المسيحية الحقة والاعتراف بأن يسوع هو الرب والمخلص، وهو ما يؤدى لا إلى الغفران وحسب بل الإفلات من محنة لا نظير لها ستعم الأرض كافة»[٩٠].

قال بلاكستون لجمهورٍ لا بد أنه أدهشته كلماته الصريحة: «يا أصدقائى اليهود، أى الطريقين ستختارون؟ تدارسوا بشارة الرب هذه وانظروا كيف بيّن الرب نفسه الطريق لبنى إسرائيل إلى اليوم المنشود»[٩١].

كانت دعوة الأرواح الضالة التى لم تهتدِ بعد تعتبر مهمة خطيرة فى الحرب الحضارية التى تم خوضها تحت شعار الأصولية. وهذا ما قصده دوايت مودى حين استشهد بمقولة الرب له: «يا مودى، أنقذ كل من وسعك إنقاذه». وهذا ما دفع ويليام بلاكستون للانضمام لإحدى جمعيات التبشير المسيحى العديدة التى تهدف إلى تنصير المهاجرين اليهود الوافدين إلى أمريكا بأعداد كبيرة فى أواخر القرن التاسع عشر. وكانت هذه الجمعيات مقتنعة طبعًا بأن آخر الزمان يُستعجل بدعوة الشعب اليهودى إلى يسوع المسيح.

كان من هذه الجهود ما يعرف بـ «إرسالية أمل إسرائيل» وكان مبشرها الأول أرنو جابلاين (١٨٦١ ـ ١٩٤٥م)، وبدأ التبشير فى أيام السبت بالحى اليهودى على الجانب

الشرقى الأدنى من مدينة نيويورك. درس جابلاين ـ وهو مهاجر منهجى من ألمانيا ـ اليديش والعبرية حتى يتسنى له أن يرد على الأحبار ممن انبروا للدفاع عن ديانتهم. يقول تيموثى ويبر: «الحقيقة أنه اكتسب خبرة فى التلمود وغيره من تراث الأحبار، ويتكلم اليديش بطلاقة لدرجة أنه كان يجد صعوبة فى إقناع كثير من جمهوره بأنه ليس يهوديًّا يحاول أن يبدو كأحد الأغيار»[٩٢].

ولكن ثبت أن اليهود قوم يصعب إقناعهم. وعندما تجاسر طلاب من «معهد مودى للكتاب المقدس» فى شيكاجو على دخول أحد أحياء اليهود للوعظ، مثلاً، لم يفلحوا إلا فى جذب حشد غاضب من الدهماء رموهم «بتل من قشر البطيخ والموز والطماطم المهترئة وغيرها من الثمار»[٩٣]. ولجأ بعض المبشرين لنوع من التلون الدفاعى فلم يكونوا يشيرون إلا إلى «المسيح» دون التطرق لمقابله المشتق من اليونانية: «Christ». واكتشف أحد المبشرين المثابرين أنه لا ينبغى البدء فى التبشير فى مبنى يهودى من الطابق الأرضى لأعلى. فحين يبلغ الطابق الأعلى فإن سكان شقة الطابق السفلى يكونون قرءوا النشرات التى وزعها عليهم فيودعوه فى نزوله باللعنات والسباب والحساء الساخن والخضراوات العطنة. يقول المبشر الشاب: «وهكذا تعلمت حين أدخل فى المرة القادمة مبنى سكنيًّا علىّ أن أبدأ من الطوابق الأعلى نزولاً لأسفل»[٩٤].

كان بعض الأصوليين المسيحيين يعتبرون مقاومة الشعب اليهودى جهودهم للتنصير نذير سوء. وتعد «پروتوكولات حكماء صهيون» تزييفًا معاديًا للسامية يتصور وجود مؤامرة يهودية شيطانية على العالم، وهو كتاب قُرئ باعتباره حقيقة فى بعض الدوائر المسيحية فى السنوات الأولى من القرن العشرين، وأثنى أرنو جابلاين على هنرى فورد علنًا لنشر البروتوكولات على صفحات صحيفته. بل إن فكرة وجود عصبة سرية من الأشرار اليهود كانت مقبولة تمامًا لدى كثرة من قراء سفر الرؤيا. يقول ويبر: «فالغيبيات قبل الألفية هى على كل حال نظرية تآمر ذات أبعاد كونية»[٩٥].

وانبرى العديد من الأصوليين الآخرين لإدانة إخوانهم المسيحيين ممن شاركوا فى أعمال تنم عن معاداة السامية أو تعبر عنها. فهناك، مثلاً، كاهن يدعى چيمس جراى

يعمل مع «معهد مودى للكتاب المقدس» أدان معاداة السامية باعتبارها «إحدى أخطر أشكال الكراهية والعداء العنصريين التى عَرفتها البشرية». ولكنه فى الوقت نفسه أقر بأن القناعات الدينية تقتضى منه أن يعتبر اليهود ملعونين، فأعلن قائلاً: «صحيح أن يهوه لعن إسرائيل لخطاياها، ولعنته عليها لا تزال قائمة اليوم. ولكن هناك فارقًا بين أن يلعنها الرب وأن نلعنها نحن»[٩٦].

ثم كان هناك أيضًا مبشرون محبطون اكتفوا بالمصير الذى كتب على من أبوا الهداية من يهود ومسيحيين على السواء فى سفر الرؤيا. فمؤلف سفر الرؤيا ـ كما رأينا ـ يتقد بغضًا للمسيحيين «الفاترين» ممن يؤثرون رغد العيش على ما يعد فى نظره الحياة القويمة، ويبدو أنه يتلذذ بتخيل الانتقام الذى سينزله الرب بمن لا يشاركونه إيمانه. وهذه الشماتة نفسها يمكن ملاحظتها لدى قراء سفر الرؤيا اللاحقين أيضًا. فهناك ـ على سبيل المثال ـ واعظ إحيائى كتب فى سنة ١٩١٨م قائلاً: إن الرب سيضحك فى سره فى حبور فعلىّ من عذاب كل من لم «يُخطف» إلى السماء قبل آخر الزمان. وكتب الواعظ يقول: «لطالما تم تحذير هؤلاء المهمَلين ولكن بلا طائل. فعباد الرب ما وضعوا نصب أعينهم حاجتهم الملحة لتفادى الغضب القادم إلا لكى يتعرضوا للسخرية من آلامهم. لكن المائدة انقلبت الآن وسيضحك الرب منهم، سيضحك من مصابهم ويستهزئ بخوفهم»[٩٧].

والمؤكد أن رب إسرائيل يوصف بأنه إله غيور ناقم فى بعض الفقرات الرهيبة بالكتاب المقدس العبرى. فيتوعد فى سفر التثنية قائلاً: «أَرُدُّ نَقْمَةً عَلَى أَضْدَادِى وَأُجَازِى مُبْغِضِىَّ. أُسْكِرُ سِهَامِى بِدَمٍ وَيَأْكُلُ سَيْفِى لَحْمًا»[٩٨]. إلا أننا هنا نرى كيف يتحولَ الرب فى قراءات سفر الرؤيا الجديدة من قاضٍ وملِك ومحارب إلى قاتل يقهقه ويتلذذ بأخذ ثأره بيده من بشر هو الذى خلقهم أصلاً.

وفى الوقت الذى كان هؤلاء الأصوليون المسيحيون يسعون لخلاص أرواح اليهود كانوا يخوضون كفاحًا مريرًا مع بعض من إخوانهم المسيحيين حول النهج السليم لقراءة سفر الرؤيا. فالجدل الذى انقسم حوله المسيحيون فى أواخر العصور القديمة ـ ما إذا كان ينبغى قراءة سفر الرؤيا «روحيًّا» أم «حسيًّا» ـ أصبح يضع التقليديين فى مواجهة مع المحدثين فى السنوات الأولى من القرن العشرين.

كان سفر الرؤيا حسب وصف أحد الشراح المسيحيين فى سنة ١٩٠٧م «طائرًا غريبًا فقس من رؤى المستحيل»، وقال إن غالبية المسيحيين المحدثين تخلوا عن المشروع الرؤيوى برمته واتجهوا إلى «المفاهيم الأقرب للعقل والروح». ولاذ نقاد آخرون بالرأى القديم الذى يرى أن سفر الرؤيا يغرى المسيحيين بالوقوع فى خطأ «تهويد» النص. ويلخص چيمس مورهيد هذا الرأى بقوله إن «النزعة الرؤيوية التى هى نتاج فكر يهودى مبدع، أغرت المسيحيين الأوائل لبعض الوقت، ولكنها لم تتناغم قط مع رسالة الكنيسة»[٩٩].

وفى مواجهة سيناريو يوم القيامة المتقد لدى أنصار ما قبل الألفية، دافع التقدميون المسيحيون عما أصبح يعرف بنزعة ما بعد الألفية، وهى فكرة مفادها أن المجىء الثانى لعيسى المسيح لن يحدث إلا بعد بلوغ الدنيا ذروة كمالها بالجهد البشرى. وكان أنصار «الإنجيل الاجتماعى»، مثلاً، يؤمنون بأن «مملكة الرب تحل بانضمام المسيحيين إلى غيرهم من حسَنى النية فى دعم نقابات العمال ومكافحة عمالة الأطفال، والدعوة لسن تشريعات لحماية عمال المصانع وسكان المناطق العشوائية من المهاجرين، والمشاركة فى الكفاح من أجل العدل الاجتماعى فى مناطق أمريكا الحضرية الصناعية»[١٠٠]. وكانوا فى الحقيقة يطبقون نوعًا من القراءة الروحية لسفر الرؤيا كان أوغسطين أوصى به. يقول والتر راوشنبوش (١٨٦١ ـ ١٩١٨م) فى كتابه «لاهوت للإنجيل الاجتماعى ـ A Theology for the Social Gospel» (١٩١٧م): «إن مملكة الرب قادمة دومًا»[١٠١].

ومن الغريب أن أكثر الأفكار تقدمية فى المسيحية أعجبت بعضًا من أغنى المسيحيين وأكثرهم نفوذا. فعلى سبيل المثال، كان چون. دى. روكفلر الابن (١٨٧٤ ـ ١٩٦٠م) ابن منشئ شركة «ستاندرد أويل» وأحد كبار محبى الإنسانية الأمريكيين، هو الذى مول ما عرف بـ «الحركة العالمية للتعاون بين الكنائس» وهو من أول المساعى الرامية لإشراك الكنائس المسيحية فى مشكلات العالم الحديث الخطيرة المتنامية. وأكد فى مقال له نشر فى صحيفة «صندای إيڤننج پوست» قائلاً: «أنا أنظر إلى إنشاء مملكة الرب على الأرض نظرة حرفية»، مؤيدًا بذلك أهم المبادئ الأصولية فى الإنجيل الاجتماعى[١٠٢].

لكن الأصوليين المسيحيين تمكنوا من تجنيد قلة من أقطاب الصناعة. ففى سنة ١٩١٠م، مثلاً، تكفل الأخوان ليمن وميلتون ستيوارت مالكا شركة «يونيون أويل» بتوزيع ثلاثة ملايين نسخة مجانية من سلسلة نشرات بعنوان «The Fundamentals» وضعت بغرض كسب تأييد رجال الدين البروتستانت فى أرجاء أمريكا لمعتقدات الأصولية المسيحية. كما مول الأخوان ستيوارت توزيع ما يقرب من سبعمائة ألف نسخة من بيان ويليام بلاكستون الرؤيوى بعنوان «Jesus Is Coming» (عيسى آتٍ) على دائرة القراء المؤثرة نفسها.

عجلت هذه الجهود المكلفة بحدوث يقظة كبرى ثالثة فى السنوات الأولى من القرن العشرين ــ «أكثر من ثلاثمائة كيان طائفى مستقل كلها تؤمن بعودة المسيح قبل الألفية» حسب قول پول بوير[١٠٣]. وتمكن الفكر الرؤيوى القديم لسفر الرؤيا بعد أن نقحته وجددت شبابه تعاليم چون داربى من اجتذاب المسيحيين على اختلاف مللهم من الكنائس البروتستانتية ذات النهج القديم إلى البنتاكوستيين أو «الخمسينيين ــ Pentacostalists» الذين يعتنقون التكلم بألسنة(*) «جماعة أحد العَنصرة».

ومن أبرز الأمثلة على انتشار حمى الرؤيوية من جديد، ما بدأ بتشارلز تيز راسل (١٨٥٢ ـ ١٩١٦م) وهو عقاد من پنسلڤانيا أقنعته قراءته سفر الرؤيا وغيره من النصوص الرؤيوية بأن إرهاصات الألفية بدأت فعلاً، وكان يعتقد أن الرب سيخطف مائة وأربعة وأربعين ألفًا من «القديسين» من فوق سطح الأرض فى أية لحظة، وسيعودون قريبًا بصحبة عيسى المسيح لخوض معركة أرمجدون ضد جيوش الشيطان. وانتظم أتباع راسل بعددهم الذى بلغ حوالى ثلاثين ألفًا بأوائل القرن العشرين أولاً فى «جمعية برج المراقبة» ثم غيروا فيما بعد اسم كنيستهم ليصبح «شهود يهوه». وكان راسل يؤكد لهم مردداً كلمات كل من عيسى وبولس كما وردت فى النصوص المقدسة المسيحية قبل عشرين قرنًا قائلا: «لن يموتوا أبدًا»[١٠٤].

وككثير غيره من الوعاظ الرؤيويين قبله وبعده، كان راسل على قدر من الجرأة

(*) طبقًا للنص الإنجيلى الذى فيه يتكلم تلاميذ المسيح بألسنة، أى بلغات لم يعرفوها من قبل، للتبشير.

يكفى لأن يحدد تاريخًا ليوم القيامة. فحدد ١٨٧٤م كتاريخ لبدء ساعة العد التنازلى، وتنبأ بأن حكم عيسى المسيح سيبدأ بعدها بأربعين سنة، أى فى سنة ١٩١٤م؛ لذا فحين أطلقت الطلقات الافتتاحية للحرب العالمية الأولى اتخذت نبوءته معنى مفاجئًا وعاجلاً لا لدى أتباعه وحدهم، بل لدى كثرة من المؤمنين الآخرين بالفكر الرؤيوى. فهللت صحيفة تابعة لـ«جماعة أحد العنصرة» قائلة: «الحرب! الحرب! الحرب!!! شعوب أوروبا تتحارب وتمهد الطريق عن غير قصد لعودة الرب يسوع»[١٠٥].

فى أواخر صيف ١٩١٤م، كانت أمريكا لا تزال تتشبث بالفكرة السعيدة التى ترى أن حسن النية والمبادرة والإبداع هى كل ما يحتاج الجنس البشرى لتحقيق المقابل العلمانى للملكة الألفية هنا على الأرض. يقول پول فاسل فى كتابه «الحرب الكبرى والذاكرة الحديثة ـ The Great War and Modern Memory»: لم تكن كلمة «آلى» اقترنت بعد بكلمة «مدفع»[١٠٦]. وكانت مثل هذه الآمال المشرقة من أولى ضحايا الحرب العالمية الأولى التى أثبتت أن التقنية الجديدة الواعدة فى القرن العشرين كانت قادرة على قتل الشباب وتشويههم بالملايين. أما بالنسبة لقراء سفر الرؤيا، فإن المشهد المروع للحرب الحديثة أكد اقتناعهم بأن ما يشهدون ليس إلا معركة أرمجدون.

ومن الغريب أن الحرب العالمية الأولى أطلق عليها الدعاة المتفائلون المغرورون «حربًا لإنهاء كافة الحروب»، وهى عبارة تصدق على أرمجدون لا شك، ولكن ثبت أن الحريق ليس نهاية الحروب ولا نهاية العالم. ومع ذلك فإن ما صحب الحرب الكبرى من رعب واضطراب أطلق تكهنات رؤيوية كتلك التى صاحبت كل حرب فى تاريخ الغرب منذ سقوط روما فى القرن الخامس. ودرس أحدث أجيال المتنبئين النصوص القديمة وقرروا أن العالم يشهد الأحداث التى تنبأ بها سفر دانيال: «وَيَقُومُ مَلِكٌ جَبَّارٌ وَيَتَسَلَّطُ تَسَلُّطًا عَظِيمًا وَيَفْعَلُ حَسَبَ إِرَادَتِهِ. وَكَقِيَامِهِ تَنْكَسِرُ مَمْلَكَتُهُ وَتَنْقَسِمُ إِلَى رِيَاحِ السَّمَاءِ الأَرْبَعِ»[١٠٧].

بلغت الحرب العالمية الأولى حدًّا من الهول ـ وعالم ما بعد الحرب قدرًا من الرعب ـ أثار الروح الدينية فى من وضعوا أنفسهم على حافة العالم الحديث. وهكذا

نجد ـ على سبيل المثال ـ أن كريستابل پانكهورست (١٨٨٠ ـ ١٩٥٨م) حولتها تجربة الحرب العالمية الأولى من ناشطة نسائية مناضلة ومشهورة إلى متحدثة باسم القضية قبل الألفية و«العودة الموعودة ليسوع ملك الملوك ورب الأرباب» كما قالت فى أحد أعمالها عن النبوءة التوراتية[١٠٨]. أعلنت بانكهورست قائلة: «ككثير غيرى، كنت أعيش فى مناخ من الوهم، كنت أظن أنه ما أن تزول بعض العقبات ـ لا سيما حرمان المرأة حق الانتخاب ـ ستحدث الانطلاقة نحو النظام الاجتماعى والدولى الأمثل. ولكن عندما واجهت الحقائق فعلاً فى سنة ١٩١٨م رأيت أن الحرب لم تكن حربًا لإنهاء كافة الحروب، بل كانت بداية الأحزان على الرغم من نصرنا الآتى»[١٠٩].

كانت أحداث الحرب العالمية الأولى المفزعة ذات مغزى واضح بالنسبة للعقلية الرؤيوية التى تنظر بعيون النبوءة التوراتية. فاعتُبرت روسيا مملكة جوج التوراتية، واعتُبرت إطاحة البلاشفة بالقيصر فى سنة ١٩١٧م تحقيقًا لنبوءة بسفر حزقيال: «هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَا أَنَذَا عَلَيْكَ يَا جُوجُ»[١١٠]. وإعلان بالفور فى سنة ١٩١٧م الذى ألزم بريطانيا بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وتخليص أورشليم [القدس] من يد الأتراك فى سنة ١٩١٨م على يد الجيش البريطانى، تم تأويلهما بأنهما «بداية لسلسلة من الأحداث مقدر لها أن تنشئ مملكة الرب هنا على الأرض» حسب قول لانجستن، وهو أحد شراح الكتاب المقدس المتحمسين[١١١].

يفسر لانجستن قائلاً: «إن اليهود وأرض فلسطين كالخرائط بالنسبة للملاح. وحين نتدارس النبوءات المتعلقة «بالشعب» و«الأرض» نضع أيدينا على مفتاح أسرار مشيئة الرب وما قدر للعالم»[١١٢].

ومثل دانيال فى بابل ويوحنا فى روما، كان الناس فى أمريكا القرن العشرين مستعدين لرؤية علامات دنو النهاية من حولهم. وكانت «الحروب وشائعات الحروب» تفرز خيوطًا متزايدة من التوقع والانتظار فى الأوساط المسيحية. فحتى نذر الشؤم كانت بالنسبة لهم ولقراء سفر الرؤيا على مدار القرن العشرين يمكن اعتبارها بشائر خير.

وهكذا بدأ سفر الرؤيا يمارس سحره القديم على قلوب المحدثين وعقولهم. ففى

مراحل مختلفة فى التاريخ الطويل للنص القديم ـ كما رأينا ـ كان الرقم ٦٦٦ يُفهم على أنه يشير إلى نيرون أو ألاريك أو نابوليون. والآن أصبح الرقم نفسه بالنسبة لأحدث أجيال حلالى الشفرة الرؤيويين إشارة إلى أسماء لينين وستالين وهتلر وموسولينى، بل فرانكلن ديلانو روزفلت، حسب الموقف السياسى للناظر.

كان بعض الغلو الرؤيوى الذى نشأ غداة الحرب الكبرى شائنًا تمامًا. فكانت الواعظة البنتاكوستية (العضو بجماعة أحد العَنصرة) إيميه سامبل مكفرسن (١٨٩٠ ـ ١٩٤٤م) لديها القدرة على تحريك رعيتها وجمهور مستمعيها بالإذاعة إلى لحظات من النشوة بخطبها المتقدة عن المجىء الثانى. كانت إيميه ترتدى ثيابًا ملونة، بل أزياء غريبة أيضًا، وتدعمها فرقة مسرحية من خمسين فردًا، وتزعم أنها تؤدى أعمال شفاء دينى و«قتل روحى». وكانت هناك فقرة من سفر الرؤيا تظهر بأعلى صارى «نداء العرس» وهو من إصدارات «كنيسة مكفرسن الدولية للبشارة التربيعية»: «وَالرُّوحُ وَالْعَرُوسُ يَقُولاَنِ: «تَعَالَ» ...»[١١٣] إلا أنها راحت ضحية عواطفها، إذ شاع عن إقامتها الغامضة فى الصحراء أنها لم تكن سوى إقامة مع عشيقها، وهو فنى إذاعى معين بالكنيسة، وتوفيت نتيجة جرعة زائدة من المهدئات.

وهناك أمثلة أخرى هزلية. فهناك جماعة رؤيوية تعرف بـ«بيت داود» ـ على سبيل المثال ـ كانت تعمل على إعادة الأسباط الاثنى عشر المفقودة توقعًا لحلول المملكة الألفية. وكان لـ«بيت داود» فريق لكرة السلة يطلق أعضاؤه لحى طويلة يقصد بها الإيحاء بأنبياء العهد القديم، وكان الفريق يقدم مباريات استعراضية فى أنحاء البلاد بغرض جمع المال واجتذاب أعضاء جدد. وبالإعلان عن أنهم طائفة من العزاب، فإن جماعة «بيت داود» انتهت بفضيحة، حيث ألقى بمنشئها الذى كان يتخذ مظهر الملك بنيامين وزوجته مظهر الملكة مريم فى السجن بتهمتى الاحتيال والغواية.

وهناك استعمالات أخرى كلامية وعلمانية صرفة لمجموعة أيقونات سفر الرؤيا. فكان كتّاب الصفحات الرياضية فى أواسط عشرينيات القرن العشرين يطلقون على اللاعبين الأربعة الذين يشكلون خط دفاع فريق المدرب نيوت روكنى لكرة القدم فى

مدينة نوتردام «الخيالة الأربعة»، وكانت التسمية نفسها تطلق على أعضاء المحكمة الدستورية العليا الأربعة الذين صوتوا لإسقاط بنود عدة من «الصفقة الجديدة» فى عهد إدارة روزفلت فى ثلاثينيات القرن العشرين. وعندما زعم أحد الوعاظ الرؤيويين بلوس أنچيليس أن «وسم الوحش» كان فى الحقيقة النسر الأزرق الذى اتخذ شعارًا لـ«إدارة الإنقاذ القومى» ـ محور «الصفقة الجديدة» ـ اضطر حتى المراقبون المتدينون للضحك. وكتب إرنست كادمن كولويل فى سنة ١٩٣٧م يقول: «من ذا الذى رآه وتمكن من نسيان التعبير المنتشى على وجه المفسر الذى اكتشف لغز وحش سفر الرؤيا متجسدًا فى «إدارة الإنقاذ القومى»؟»[١١٤].

إلا أن أكثر مفسرى سفر الرؤيا إبداعًا كانوا جادين حين كان الأمر يتعلق بالمعانى الجديدة التى يتكهنون بها عن النص التوراتى. فكانوا يجلون التراث الرؤيوى لدرجة أنهم كانوا يعتبرون بينيتو موسولينى أقرب لعدو المسيح من أدولف هتلر؛ لأن موسولينى كان فى مدينة روما مقر الوثنية الرومانية القديمة وبؤرة الخوف والاشمئزاز فى سفر الرؤيا. بل إن موسولينى لفت المراقبين الرؤيويين المسيحيين فى بدء توليه السلطة فى عشرينيات القرن العشرين، وظل إل دوتشى فى تلافيف لا وعيهم بعد أن أثبت الفوهرر أنه أكثر استبدادًا. يقول راعى الكنيسة المعمدانية بمدينة نيويورك: «لست مهيأ لأن أقول إن الوحش هو ستالين أو هتلر أو موسولينى، ولكنى لا أتردد فى القول بأنهم نذر له وأنهم يمهدون الطريق لمجيئه. وموسولينى يفوقهم جميعًا فى وفرة العلامات فيه»[١١٥].

وهكذا فإن التحية التى ابتكرها حزب موسولينى الفاشى ـ واتخذها النازيون من بعده ـ بالكف المفتوح والذراع المرفوع ـ تم ربطها بفقرة بسفر الرؤيا يقال فيها إن الوحش «يصْنَعُ لَهُمْ سِمَةٌ عَلَى يَدِهِمِ الْيُمْنَى»[١١٦]. يقول الإيڤانجليكى هيرستورم: «من المؤكد أن سكان العالم سيُطلب منهم أن يرفعوا أياديهم اليمنى بحركة تشبه التحية الفاشية الحالية حتى يبينوا الوسم فى عهد حكم الوحش»[١١٧]. والصورة التى كانت تميز قطعة العملة ذات العشرة سنتات الأمريكية فى ثلاثينيات القرن العشرين ـ حزمة

عصى فى وسطها بلطة بارزة، وكانت فى الأصل تمثل السلطة المطلقة لروما القديمة، ثم اتخذت فيما بعد رمزًا للحزب الفاشى الإيطالى ـ كانت تعد مثالاً آخر لـ«وسم الوحش».

والحقيقة أن مثل هذه التكهنات الرؤيوية لم تؤد إلى مواجهة مباشرة مع موسولينى نفسه إلا مرة واحدة. إذ نجح رالف نورتن وزوجته ـ وهما صحفيان مسيحيان من بلچيكا ـ فى إجراء حديث مع إل دوتشى وسألاه فى معرض اللقاء عما إذا كان يزمع إعادة بناء الإمبراطورية الرومانية. وحين أجاب باستحالة ذلك، واجه الصحفيان الدكتاتور الفاشى عن النبوءة التى تقول إن روما التى يُرمز لها فى سفر الرؤيا بـ «بَابِلُ أُمُّ الزَّوَانِى وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ»[١١٨] ستولد من جديد ثم تفنى فى آخر الزمان. فرد موسولينى فى دهش قائلاً: «هل ورد هذا فى الكتاب المقدس فعلاً؟ وفى أى موضع ورد؟»[١١٩].

لم يكن موسولينى موضع سخرية بالطبع. فبشاعات الحرب العالمية الثانية فاقت حتى الخيال الرؤيوى، وكانت أشبه ما تكون بما ورد عن معركة أرمجدون. ويسلم عالم اللاهوت راينهولد نيبور فى سنة ١٩٤٠م بأن «تاريخ الإنسانية يتحرك نحو ذروة يصبح الشر فيها أكثر عريًا ووقاحة»[١٢٠]. ومع ذلك فحسابات سفر الرؤيا اللاهوتية تدفع المؤمن الحق لاعتبار أسوأ الفظائع ـ خاصةً أسوأ الفظائع ـ علامة على أن المجىء الثانى يقترب بسرعة.

كتب آرثر ماكسويل المحرر بصحيفة «أدڤنتيست اليوم السابع» الرؤيوية فى مقال له بعنوان «ذروة التاريخ المزدحمة»: «فجأة وسط حضارة القرن العشرين الزاهرة، برزت أسوأ سمات البشرية إلى الصدارة؛ كل المشاعر الشريرة أطلقت من عقالها؛ كل الأرواح الشريرة التى ظن البعض أنها طردت منذ قرون عادت أضعاف ما كانت عليه، وبصورة أكثر انحطاطًا وشيطانية مما كانت عليه. كل المستجدات الغريبة والرهيبة التى تشهدها هذه الحقبة المخيفة ... ليست فى الحقيقة إلا دليلاً آخر على أننا فى وسط أكبر أزمة فى التاريخ»[١٢١].

بعض الأصوليين المسيحيين ممن اعتبروا قيام دولة يهودية فى فلسطين شرطًا للمجىء الثانى، كانوا فى غاية القسوة أيضًا على اليهود من ضحايا المحرقة [المزعومة فى حجمها فى رأى المترجم]. ورد فى نشرة مسيحية صدرت وقت أن كانت المحرقة فى أوجها أن «الرب ربما سمح للشيطان أن يستخدم هتلر أو جويبلز (كذا) أو ستالين لتطهير شعبه ويجعلهم غير راضين بثرائهم ورخائهم. واليهودى مضطر للعودة لأرضه الموعودة، فهو غير مرغوب فيه فى العديد من بقاع الأرض»[١٢٢].

وهكذا كان مشهد النصر على المحور بقوة السلاح مدعاة للإحباط بالنسبة للمتنبئين الرؤيويين؛ لأن هزيمة عدو فانٍ مهما بلغت وحشيته وقسوته لم تكن توازى هزيمة الشيطان. جاء فى «Christian Digest» فى سنة ١٩٤٢م أن «العم سام لن يكون ندًّا لعدو المسيح» فى تلميح لمعركة أرمجدون التى لم تنشب بعد وفى تعبير عن الفرحة بمعرفة أن حمل الرب وحده القادر على هزم الشرير الأكبر. لكن لا هتلر ولا موسولينى يمثل «الوحش»: «فالأسوأ لم يظهر بعد»[١٢٣].

ومن الغريب أن الفكر الرؤيوى يمكن أيضًا رؤيته على جانبى الصراع بين الديمقراطية والشمولية فى الحرب العالمية الثانية. فالنازيون كقراء دانيال والرؤيا الأوائل فى رأى داميان تومسن «كانوا يؤمنون بأنهم ظهروا فى اللحظة الحاسمة فى التاريخ البشرى. فكانت هناك سماء جديدة وأرض جديدة فى متناول يد «النخبة» طالما أنهم لم يرضخوا لقوى العدو». ربما استخف زعماء ألمانيا النازيون بعيسى المسيح الرقيق الرئيف ـ أعلن مارتن بورمن فى سنة ١٩٤١م قائلاً: «الاشتراكية القومية والمسيحية لا تتفقان»[١٢٤] ـ إلا أن هتلر أدرك القوة الرهيبة للمثال الألفى بوضوح. يقول تومسن: «لا شك أن حكم القديسين الألفى يكمن وراء فكرة الرايخ الألفى»[١٢٥].

تمثل ألمانيا النازية نموذجًا للفظائع التى يمكن أن تحدث حين تجتمع العاطفة الرؤيوية والإيمان الحق فى قلوب البشر المتحضرين وعقولهم. يقول تومسن: «من الغريب أن النازية كان ينبغى أن تتبنى ـ عن غير وعى ـ بنية الإيمان كما طورها اليهود وإن لم يكونوا بالضرورة من ابتدعها» فى إشارة إلى أن التراث الرؤيوى فى اليهودية يبدأ بسفر

دانيال. «أما بالنسبة للدم أو البغض الخبيث الخالص للعدو، فإن دانيال وأقدم الكتابات الرؤيوية لا ينافسان صراع النازيين الرؤيوى؛ ففى ذلك علينا الرجوع لسفر الرؤيا». فبالنسبة للنازيين كما هو بالنسبة لسفر الرؤيا، كان المتصور أن الخصم «شر خالص ... فى هيئة بشرية» و«مرن لدرجة يستحيل معها هزمه إلا فى حرب كونية»، وهى قناعة ركنوا إليها فى تنفيذ جرائم المحرقة[١٢٦].

يمكن تبين «الجذور الألفية للنازية» فى دراسة نورمن كون عن العنف الرؤيوى فى العصور الوسطى وعنوانها «السعى وراء الألفية ـ The Pursuit of the Millennium». يعود كون إلى التجاوزات الرؤيوية كالقتل الجماعى لليهود إبان الحملة الصليبية الأولى، ولكنه تم دفعه لأداء عمله حين استدعى كضابط استخبارات فى الحرب العالمية الثانية لاستجواب الأسرى، وبالتالى وجد نفسه فى مواجهة «مناخ فكرى» يمكن للمرء فيه أن يشعر بأن إلقاء الأطفال فى الأفران أو طرد ملايين الناس وتركهم يموتون بردًا أو جوعًا يعد خيرًا وصوابًا»[١٢٧].

ومع ذلك أفرزت الحرب العالمية الثانية شيئًا جديدًا تمامًا فى التراث الرؤيوى. فمؤلفا سفرى دانيال والرؤيا تمكنا من تصور نهاية العالم، إلا أن التجربة الإنسانية تؤكد أن العالم لا يفنى بهذه السهولة. فإبادة الجنس البشرى وتدمير الحضارة البشرية أمر يفوق قدرة البرابرة أو جيوش الإسلام(*) أو الأسطول الإسپانى أو كتائب ناپوليون، والتى كانت كلها تعد من عمل الشيطان. فالعالم مرة أخرى يأبى الفناء.

فى الخامسة والنصف من صباح السادس عشر من يولية سنة ١٩٤٥م، أثبت

(*) ليست «جيوش الإسلام» التى تعربد فى العالم منذ عصر النهضة، بل جيوش الغرب هى التى شنت الحملات الصليبية على أرض الإسلام وقتلت اليهود فى أوروپا كما ذكر المؤلف نفسه فى موضع سابق من هذا الكتاب، وهى التى قتلت ما يقرب من مائة مليون نفس بشرية فى حربين عالميتين، وهى التى أبادت اليابانيين فى هيروشيما وناجازاكى بالقنابل الذرية فى سنة ١٩٤٥م والشيتناميين حتى أوائل السبعينيات والعراقيين والأفغان حتى الآن، وجيش الكيان الإسرائيلى المرتزق هو الذى لا يزال يقتل المسلمين ويعربد بوحشية وبرعاية غربية كاملة. هذا فى حين أن هؤلاء المسلمين الذين يهاجمهم المؤلف لم يسعوا قط إلى تدمير العالم لسبب بسيط هو أن كتابهم لا يحوى «نصًّا مقدسًا» كهذا الذى يحض على البغض ويستعجل فناء الأرض ومن عليها ـ المترجم.

تفجير أول قنبلة ذرية فى العالم بصحراء نيومكسيكو أن القدرة على تدمير العالم موجودة فعلاً. فنجاح إطلاق سلاح نووى أطلق عليه اسم «ثالوث» أفرز ظاهرة غريبة هى أن مادة السيليكا فى رمال الصحراء اندمجت واستحالت زجاجًا صلبًا لمسافة ثمانمائة ياردة فى كل اتجاه من نقطة التفجير. والمشهد بالنسبة لقراء سفر الرؤيا يذكر بإحدى الرؤى عن عرش الرب فى النص القديم:

«وَمِنَ الْعَرْشِ يَخْرُجُ بُرُوقٌ وَرُعُودٌ وَأَصْوَاتٌ وَأَمَامَ الْعَرْشِ سَبْعَةُ مَصَابِيحِ نَارٍ مُتَّقِدَةٌ هِيَ سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ. وَقُدَّامَ الْعَرْشِ بَحْرُ زُجَاجٍ شِبْهُ الْبَلُّورِ»[١٢٨].

بل إن مرأى أول انفجار حرارى نووى فى تاريخ العالم ألهم ج. روبن أوپنهايمر الذى يعرف بـ «أبى القنبلة الذرية» بحلم رؤيوى، ولكنه استعار من التراث الهندوسى ما يصف به ما رأى فى الدخان والنار. فقال «أصبحت موتًا»، ثم استشهد أوپنهايمر فيما بعد بكلمات من كتاب الـ «ڤيشنو» الهندوسى المقدس تقول: «أصبحتُ أنا الموت مهلك العوالم»[١٢٩].

إلا أن إدراك أية غيبيات فى السحابة الأيقونية التى تشبه عيش الغراب الناجمة عن «ثالوث» يحد من مغزى ما رأى أوپنهايمر فى تلك اللحظة، أى تجربة علمية تثبت قدرة الجنس البشرى على تدمير نفسه. فبتفجير أول قنبلة ذرية حقق سفر الرؤيا قفزة نوعية إلى نطاق جديد لم يسبق تصوره، واضطر الجنس البشرى فجأة لمواجهة معلومة رهيبة مفادها أن نهاية العالم لا تحتاج إلى الغيب على الإطلاق.